سعيد عقل

شعرُه والنثر

المجلّد الاول

بنت يفتاح

المجدليّة

قدموس

نوبليس

سعيد عقل

شعرُه والنثر

المجلّد الأول

بنت يَفتاح
المجدليّة
قدمُوس

نوبِليسُ

DL

للمؤلف

بنت يفتاح الطبعة الأولى ١٩٣٥ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

قدموس الطبعة الأولى ١٩٣٧ ـ الطبعة الرابعة ١٩٩١

المجدلية الطبعة الأولى ١٩٤٤ ـ الطبعة الثالثة ١٩٩١

رندلى الطبعة الأولى ١٩٥٠ ـ الطبعة الخامسة ١٩٩١

غد النخبة الطبعة الأولى ١٩٥٤ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

أجمل منك لا الطبعة الأولى ١٩٦٠ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة ومزيد عليها)

لبنان ان حكى الطبعة الأولى ١٩٦٠ ـ الطبعة السادسة ١٩٩١

كأس لخمر الطبعة الأولى ١٩٦١ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١

اجراس الياسمين الطبعة الأولى ١٩٧١ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١

كتاب الورد الطبعة الأولى ١٩٧٢ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١

قصائد من دفترها الطبعة الأولى ١٩٧٣ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١

دلزى الطبعة الأولى ١٩٧٣ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١

كما الأعمدة الطبعة الأولى ١٩٧٤ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مزيد عليها)

الوثيقة التبادعية الطبعة الأولى ١٩٧٦ ـ الطبعة الثانية ١٩٩١

خماسيات الصبا الطبعة الأولى ١٩٩١

المجلّد الأول

بنت يَفتاح
المجدليّة
قدمُوس

بنت يفتاح

مأساة شعرية من فصلين

الطبعة الاولى ١٩٣٥
الطبعة الثانية مصححة ١٩٩١

إلى .Q.A

تَوطِئَة

أَدبُنا الكلاسيكيُّ في هذا الساحل من آسيانا يجهل « الأنواع الأدبية »، حتّى الأوليّة منها كالملحمة. وكان على نهضتنا أن تحاول جهدها مجاراة آداب الأمم في هذا المِضمار.

أترك الملحمة إلى ظرف آخر، وأكتفي هنا بدرس المَرسح.

* * *

بشيءٍ من الجرأة، أُشيح بناظري عمّا وسَموه عندنا بِسِمة المرسح، لأبدأ بعرضٍ موجز أتناول فيه أنواع المرسح عند الأمم الراقية.

ثلاثة مراسحَ في الآداب العالميّة لم تُخفق : الإغريقيّ،

والشكسبيريّ، والكلاسيكيّ الفرنسيّ في القرن السابعَ عشرَ.

الكلاسيكي الفرنسيّ صورة أروع للمرسح الإغريقيّ، فأَترك أشيل وسوفوكل إلى كورناي وراسين. يبقى لديَّ مرسحان لنوعين مختلفين: الشكسبيريّ والكلاسيكي. على إن هذا الأخير نفسه، منقسم إلى نوعين مع راسين وكورناي. طريقة راسين تقضي بوصف «الأزمة في أشد حالاتها»، فإذا المأساة عاصفة مهيّئة من زمن تنفجر على المرسح فلا يمكنها، والحالة هذه، أن تطول أو تجري وقائعها في أماكن مختلفة، وهكذا تتوافر وحدتا الزمان والمكان. وطريقة كورناي تتابع وصف الأزمة من نشوئها إلى ذورة تفاقمها، إلى الانحلال. خذ له «السِيد» مثلاً، فترى أن الأزمة لا تبدأ إلاّ بعد صفعة «الكونت»، إذ يقف «رودريك» حائراً: أيترك والده سليب الشرف، أم يقتل والد «شيمين»، حبيبتِهِ؟ فلو تناول راسين موضوع «السِيد» هذه، لبدأ الرواية من هنا. ومن البديهيّ أن يكون منهج راسين هو الأكمل لبساطته ولاكتفائه بأخذ البعض من

حالات النّفس يرسل عليه النور، فتتجلّى النفس وعواطفها بأجلى مظهر. وعليه يكون النوع الراسينيّ النوع الذي أقصِده من المرسح الكلاسيكيّ.

أمّا المرسح الشكسبيريّ فالثابت أنّ صاحبه لم يكن متضلّعاً من اللاتينيّة والإغريقيّة فيأخذ بمرسحهما وبرقيّه، كما فعل راسين، وهكذا نشأ مرسحه على العموم ضرباً من الأدب البِكر وبالتالي آخذاً بالملحميّة. فكما ترى في « الإلياذة » مثلاً، عصور إغريقيا الأوّلين، تتتالى أمامك حيّة أخلاقاً وعادات، هكذا في « روميو وجوليت » وفي « هَملت » يتتالى عصران : إيطاليّ ودانمركيّ، يخفقان بأخلاق هذين البلدين وعاداتهما.

يظلُّ البحث قائماً على راسين وشكسبير، فأيّ الاثنين نعتمد في نهضتنا، وقد ثَبَت لنا أنّهما مختلفان ؟

الأوّل يتناول « أزمة » واحدة، يدرسها بكثير من التعمُّق بحيث لا يعطيك النفس الواحدة إلّا وهي تخفق بين يديك كأنها نفسك. والثاني يتناول أزمات عدّة وجماعة كاملة. وإذا حالت وفرة أشخاصه دون التَعمّق في درس كلّ نفس، فتعتاض أنت بأنّ امام عينيك عصراً كاملاً أو بشرية بأسرها، ولو خافتة الألوان.

فنّ الاول ـــ وهو درس ـــ يقتضي له، على قولهم، إنشاء وضعيٌّ رصين، يسيّره المنطق، أداة الدّرس الأولى، فيخلو من المقاطع الغنائيّة او الملحميّة. وفنّ الثاني ـــ وهو تصوير

عصر أو بشريّة ــ يستدعي الإنشاء الغنائيّ والملحميّ لغةَ البشريّة في كلِّ آن.

لا يجوز لنا الأخذ بأحد هذين النوعين، مهما كان كاملاً، إلاّ إذا وافق أميال بيئتِنا وذوقنا. فما هو ذوقنا وما هي أميالنا ؟ وهل نستسيغ راسين بإجماعه، أو شكسبير بإجماعه ؟

أخفق مرسح هوغو إلى حد، يومُ أراد أن يحذوَ حذوَ شكسبير، فهل يعني ذلك انَّ المرسح الشكسبيريّ لا يوافق غير الانكليز أو أنه لا يلائم العصور الحديثة ؟ وانَّه لا يستند، لِيعيشِ، إلّا إلى « العِتّق » ؟ وأنَّه لذلك حقيقٌ بالإهمال ؟ لا، والتشبيه الذي جئت به بعيدٌ عن الحقيقة بعد شوقي عن راسين... فإنما لمرسح شكسبير مزايا مرسحيّة حقًّا تفيدنا نحن الشَرقيّين على الأخصّ. فهو نوع أمثل « الفاجعة الشّعبيّة » (mélodrame)، التي نجحت عندنا في « عاصفة في بيت » و« الذبائح » و« العواصف » لأنطون يزبك. ومن جهة أخرى أرى أنَّ حالتنا في الشرق غيرُ حالة مشاهدي هوغو في فرنسة. هؤلاء اعتادوا، مع راسين وكورناي، مرسحاً منطقيًّا يكاد يخلو من الغنائيّات، فلولا بعض مقاطع من مثل « مونولوج رودريك » و« أغاني استير »، لرأينا المرسح الكلاسيكيّ الفرنسيّ خالياً من الوتيرة الغنائيّة. وجاء

هوغو فقدّم لهم فجأة نوعاً معاكساً تماماً. نحن في الشرق موقفنا من هوغو، المتأثّر بشكسبير، غير موقف الفرنسيين، وقد اعتدنا أن نرى شاعراً يسمعنا من على المنبر ٦٠ بيتاً كلّها من النوع الغنائيّ، وقل أخيراً اعتدنا أدباً كاملاً يكاد لا يعرف إلّا النّوع الغنائيّ. الفرنسيّون ألِفوا، في الكلاسيكيّة، النّظام والبساطة والوضوح. ونحن ألفنا « الفوضى الفخمة » والتعرّض إلى « الملحميّات الناقصة » من مثل ادب هوغو، وإني على مثل اليقين من أنّ صاحب « البوركراف » لا يخفق على مرسحنا إخفاقه في باريس.

إذن نحن، إزاء مرسح شكسبير الغنائيّ الملحميّ، نحسّ أنّنا في قلب أدبنا الكلاسيكيّ الذي لا يسعنا أن نخلعه بالكليّة.

أمّا راسين فيغري ذوقنا الحديث المثقّف على الأدب الاوروبي، يغرينا بوحدة الازمة التي تمكّنه من درس النفس البشرية، الامر الذي ينبغي أن نلتفت اليه بظمإٍ في كتاباتنا الحديثة، ويغرينا اخيراً بطريقة تسهّل — وهي وحدة ومنطق — عمل الذوق، عدوّ الضّوضاء والفوضى.

لِزامٌ علينا، والحالة هذه، أن نلتفت بآن إلى صاحب « أندروماك »، وصاحب « هَمْلِت ».

* * *

وبعدُ فقد تأثّرت، في « بنت يفتاح »، بنهج راسين. أخذت « أزْمة » وعالجتها وهي في « تفاقمها »، فانقادت إليَّ الوَحدَات الثلاث، كما أنيّ سايرت ميلَنا إلى الغنائيّات والملحميّات فكنت كشكسبير غنائيّا ملحميّا، ولكن إلى حدّ، بحيث لا أسقط من المبالغات حيث سقط هوغو.

وفي وصف النفس البشرية رأيت أن المُحَدثين لم يكتفوا بتصوير دقائق العاطفة الواحدة، والعراك بين الأشخاص المختلفين، بل صوّروا العواطف المتضادّة في النفس الواحدة، وهكذا خلقوا « الفاجعة النفسيّة » أو « فاجعة الضمير ». وهذه ميزة للادب الحديث على الادب الاغريقي، فلم أمرَّ بها من دون اهتمام.

وإجمالاً كان المرسح عندي « قلقاً ». فقد ذهب جول لمتّر إلى أنّ المرسح هو هذا « القلق » الذي يغمر قلوب المشاهدين، اذ يتوقّعون اصطدام خُلق بخُلق مُضادّ. فتخلو الرواية من المفاجآت على المشاهدين، بحيث يتعرّفون الموضوع كلّه منذ البدء إمّا لشهرته وإما لإتقان « العَرْض » القصير، فلا يتساءلون بعدُ : « ما هو سرّ العِراك النفسيّ ؟ » لأنّهم مقدّماً يعرفونه، بل يتساءلون : « كيف سيتعرّف

أشخاص الرّواية إلى هذا السرّ، وكيف سيتحمّلون خطبَه ؟ ». « القلق » هو المرسح، كلّ المرسح، وقد تجلّى في الآداب العالميّة في مأساة خالدة : « أوديب مَلِكاً » لسوفوكل.

* * *

أمّا أن أكون أخذتُ في إنشائي بطريقتي المعروفة، التي تصف العواطف بالصُّور أو على الأصحّ بالايحاء، فأمرٌ ما أنا بالنادم عليه آتي به في المأساة. وقد آن للمتأدّبين أن يفهموا أُصول المرسح ومقتضيات أنواع المرسح. فالمأساة غير « القطعة » (pièce)، وغير « المهزلة »، وغير « الفاجعة الشعبيّة ». المأساة مفترض فيها « جلال الحزن، وأن ترفعك بإبهامها إلى مثل الحلم »، فتنفلت أنت ـــ وهذا شرط الفنّ ـــ من الحقيقة الوضعيّة. ولهذا أوجبوا فيها الشعر. فهي، من دون بقية الأنواع المرسحيّة، لا تحاكي الحياة العاديّة. وإلّا كان عليهم أن يحظّروا الشعر فيها، حتّى العاديَّ منه، لأنّه ليس في الحياة اليوميّة. قلت إنّ إنشاء المأساة يجب أن يأخذ بروعة الإبهام، فيحاول أن يُظهر العاطفة بالصُّور أو يوحيها إيحاءً. قالت السّيّدة ده ستال : « إذا حرّكت النفس عاطفةٌ

قوية، فالمرء العاديّ نفسُه يلجأ إلى الصُّور والاستعارات : يستعين بالطبيعة الخارجيّة ليعبِّر من نفسه عمّا لا يُعبَّر عنه ».

وهل المرسح غير « تعبير عن عواطفَ قويّة » ؟

* * *

مفترضٌ في « المأساة » أن يكون موضوعها عريقاً في القدم، يعطيه غبارُ السنين جلالاً. فأخذتُ موضوعي من « العهد القديم »، واستخدمته للتعبير عن أماني بلادي.

أمّا أشخاصي فقد تعمّدتها أمَيل إلى أشخاص كورناي. ذلك أنّ الروائيّ الذي « صوّر الإنسان كما يجب أن يكون » تظلُّ طريقته أجدى لبلادٍ تريد في بدء نهضتها أن توفّر المُثُل العليا. وإنّي لأجدُهُ خَطَلاً أن يبدأ المرسح عندنا بوصف نفوس هذا العصر كما هي. ففي مثل هذا الوصف قَطْعُ رجاء، وقُنوط من حياة شعبٍ يأمل أحرارُه منه أن يتطلّع إلى الشمس.

* * *

أعطاني « سِفرُ القضاة » من « العهد القديم » ـــ وقُلِ التاريخ ـــ أنّ يفتاح رجلُ بطش ولدَتْهُ لِجَلْعادَ امرأةٌ بغيّ. فإذا

كبُرَ إخوته، أنكروا عليه الأُخوَّة وطردوه. ولا يذكرونه إلّا متى اجتاحهم « بنو عمون » واستبَوهم. ومقابل قبول يفتاح بمحاربة العدوّ يُقرّ له أهله بحقوقه وبالسيادة عليهم. وينتصر يفتاح. لكنّه يكون قد نذر قربانَ ظَفَرٍ أوّلَ بكرٍ تخرج إلى لقائه. فيتّفق ان تكون الأولى بنته الوحيدة. ويعطيها شهرين تبكي بكوريّتها على جبل جلعاد ثمّ ينفّذ فيها النّذر. ويصير رسماً عندهم أن تقوم العذارى كلّ سنة إلى جبل جلعاد يتفَجّعن على بنت يفتاح.

خلقت أنا الرّواية هكذا :

افترضت أنّ يفتاح على أثر طرده استبدل باسمه اسم جلعادَ، وكتمَ بنتَه الأمر، فربّاها لا تعرف في والدها ـــ جلعاد هذا ـــ إلّا رجل كِبَرٍ وأعمالٍ شهمة، كما ربّاها على كره يفتاح، حريصاً إذن على تربيتها تجهل أنّ هذا اليفتاح هو والدها. وكانت إذا اجتمعت بأتراب لها يحتقرنه وذكره، لم تتوانَ عن مشاركتهنّ هذا الاحتقار. وافترضتُ أنّ أمّه البغيّ انتهت مجنونة وهي تتردّد عليه من حين إلى آخر تزعجه ويطردها. وبدأت المأساة عند تردّد يفتاح في شأن دخول الحرب : أيترك بلاده للعدوّ سبيّة ؟ ام يدخل المعركة فيشتهر اسمُه ويفتضح أمره عند بنته ؟ فكانت روح الرّواية

في « قلق » المشاهدين على بنت يفتاح « الأبيّة » إذا عرفت سرّ أبيها « الوضيع »، وعلى يفتاح « المتكتّم » إذا « افتضح » أمره عندها.

الأشخاص

يَفتاح
راحيل : بِنت يفتاح
المجنونة : أُمّ يفتاح، عاهرة من جلعاد
تامارا: خِدنة لراحيل

يمثّل المرسح تلّة من « طوب »، قرب جبل « جلْعاد »

الحرية

جُرْحٌ على النور الهَوانُ،
ومآتمٌ معَه الجِنانُ ؛
ولأضلُعُ الأحرار آبادٌ
صَغيـــــراتٌ حِسانُ،
إنْ يستبدَّ بها الزمانُ،
يُغنِّ ثورتَها الزمانُ.
لي، مثلَ غيري بالعُلى
المِئناف، مَرمًى وافتتانُ ؛
انا لا أذَلُّ، وفي جبين
الشمس يبدو لي مكانُ !

الفصل الأوّل

مِضرَب إلى اليمين ؛ محرقة متداعية الى اليسار، يظلّلها شجر جبلي.

الليل عند السحر يُنازع شيئاً فشيئاً.

المشهد الأول

يفتاح ثمّ المجنونة

يفتاح

أَيُّ تِيهٍ، يا ربِّ، أيُّ مقاديرَ تَقاذفنَ عزّتي وقِيادي ؟
أنا في حَيرة، أُهادن دهري، وأَهزّ الآلامَ ملءَ فؤادي،
أَنكرتني عشيرتي، ورمتني هائماً في قِفار «طوبَ» الجُهْم،
فرعُ مجدٍ، مدرَّبٌ في المعالي، كنت دنيا، لولا مذلّةُ أمّي.
أنكرتني «جلْعاد» عمري، فلا تذكر بطشي، لولا العدوُّ السّابي،
أَتُراني مجيرَها من عِداها، وأنا الشِلوُ بين ظُفر ونابِ ؟
أنا سِرٌّ كتمتْهُ عن كياني، عن أحبِّ البنين، عن راحيلا،

إن أُجِب داعيَ الوغى يَشِعِ اسمي عند بنتي، فأَلتقيها ذليلا،
وإخال الأَسباط تهتِف باسمي في غدٍ، وابنتي تُصِمُّ المسامعْ.
قذفتني الأقدارُ دُميةَ لاهٍ فأنا حائرُ الأمانيِّ، ضائعَ
بين أمّ مجنونةٍ تملأُ البِيد صراخاً، وتملأُ الأَمس عارا،
وابنةٍ صُنعِ ما أُريد، تردَّت بُغض يفتاح، في الحياة، شعارا،
ذكرهُ عندها جِراحٌ على القول، وتجديفةٌ على وجه قدسٍ،
ومرورُ اسمِه على شفتيها غيمةٌ من أسًى على جوّ عرسٍ!
يلتفت فجأةً فيرى أُمّه بشعر كَثّ، وجفونٍ ناتئة، وأثواب ممزّقة
أُمٌّ!

المجنونة

يفتاح.

يفتاح

لا أنا لست يفتاح. أنا لابنتي عَلاءٌ ونورُ!
أنا ...

المجنونة

يفتاحُ.

يفتاح

لا تُعيدي على أسماعيَ اسمي، فكل ما بي يثورُ.

المجنونة

أين راحيل ؟ أنت تحجبها عنّي ؟! ولا كَتْمَ بعدُ لا أستارا،
كبُرت والسؤال ينشقّ عن فيها، وتبدو الدّنيا لها أسرارا.
شئتَ أم لا، أنت ابن عاهرةٍ!

يفتاح

أمّي، حنانيك ! أقصِري في المَقالِ !
أنا أدرى، إلى الصّميم، إلى إخفاءِ حالي عنّي، وإنكار حالي.

المجنونة

يشتدّ عليها العارض

عبثاً تصعد التّلالَ المُنيفات، وتجري تهرّباً في الفضاءِ !
أتُعدُّ السُقوط من علٍ، يا يفتاح، من مُرتقى ظنون الرائي ؟!

يفتاح

عاودتْها رؤى الجنون.

المجنونة

مستطردة

أتبغي مسحَ وجه الأوضاع بالأوهام ؟
عوّدِ البنتَ رؤية الحاضرِ القفر، فلا تشرقَ الشموس الدّوامي.

يفتاح

بإشفاق

لو تعي قولها، وتعرف راحيلَ، وجوّاً عاشت له راحيلْ !

بترفق

طفلةٌ قلتَها الصَّباحَ اذا هلَّ، شموخٌ لها النَسيمُ العليلْ
مثلُ أبكار رَبعها، تعشق المجد، وتزهو بالمحتِدِ المعبودِ،
تلتقي، في الرَّبيع، بعضَ سجاياها، وفي الأنبياء بعضَ الجدود.

بحسرة

أنا ربَّيتُها على كُرهِ يفتاحَ، وربّيتها على الكُفر باسمي،
فأنا، عندها، ابن أكرم بيتٍ، باسم «جلعادَ»، وابن أشرف أمّ؟
أتراني أُوحي إليها بفرعٍ لطَّخته أمّي بوصمة عارٍ؟!

المجنونة

ترى راحيل فتَنهد إليها

هي راحيل في الخميلة ...

يفتاح

يمنعها بتؤَدة

خلّيها شعاعاً في جِيرة الأزهار !

المجنونة

غاضبة لمنعها رؤيةَ حفيدتها

الضِّياء الضِّياء من تُرّهاتٍ نَسجتْها أناملُ الإنسانِ؛
وغدُ البِكر ليلةٌ وَفرة الرّجس، وجوٌّ مخضّبٌ بالهوانِ،
كَذِبٌ طهرُها ! ...

يفتاح

منتفضاً لإهانة بنته

أَناتَك، أمّي !

المجنونة

كذِبٌ مثلُ مُحْتِدٍ برّاقِ.

يفتاح

أَنت تَعنين محتدي ؟ وله، لولا تَردّيكِ، روعةُ الإشراقِ.
ولو انشقّت الظّواهر عنّي، لتراءَى دَمّانِ طيَّ جَناني،
ولو البرُّ بالأمومة يرضى، لاكتوى واحدٌ بنار الثاني.

وكأنّه قد ندم على إهانة امّه

عفوَ أمّي، إن أَجرؤِ اليومَ في القول !

المجنونة

وفي جرأة الذَليل اتّضاعُ !

يفتاح

بتكبّر وثورة

ما أنا بالذَليل !

المجنونة

ما أَنت يفتاحُ ؟!

يفتاح

بتفجّع وتحسر

بلى ! ولْتُهَدَّ تحتي البقاعُ !

مُرّةٌ في فمِي الحياةُ، وَدَكْناءُ المرامي في ناظري المَكلومِ،

وتكاد الشّموس تُظلم في وجهي، ويبكي عليَّ طُهرُ الغيومِ !

المجنونة

يتغنّى بالطُّهر نذلٌ شريدٌ خلّفته جلعادُ إلفَ الضّواري ؟!

يفتاح

مهلَ أمّي ! وربَّ ضارٍ من الوحش له عزّةُ النُّفوس الكبارِ !

المجنونة

إخفِضِ الرأس.

يفتاح

لإنكسار جبيني غضبةٌ مثلما لِوجه الخيالِ ؛
إن ورِثتُ الدَم الذَليل، فروحي في ضلوعي، لها الجبينُ
العالي !

المجنونة

خلِّ عن عِزّةٍ.

يفتاح

مشيراً إلى وجه أُمّه

أبيْتُ إبائي أن أراه إلّا مُحيًّا أغرّا،
أنتِ أُمّي، وأنتِ سرُّ عذاباتي، دعيني أبثّك الحبَّ مُرًّا.

المجنونة

حُبُّكَ النَّذْل ...

يفتاح

بنفاد صبر

توجعيني ! وحبّي ليسَ نذلاً إلّا إذا يلقاكِ

وكأنّه ندم

لا ! وأهواكِ كيف كنتِ.

المجنونة

وقد تقدَّم يفتاح يريد تقبيل يدها

تخيَّـب !

يفتاح

أنـا أهـواكِ.

المجنونة

دَعْ

يفتاح

يكون قد ارتمى دونها، يرغمها على التَّراجع

أَنـا أهـواكِ !

إذهبـي.

المجنونة

غاضبة لطردها

أَنتَ ؟ أَنتَ يفتاحُ ؟

يفتاح

خلّيني.

المجنونة

مولولة من الداخل

طريدُ الرُكبان من كلّ ظَعْنٍ ؟!
ثمرُ العار ! وُلْدُ عاهرةٍ كاللّيل! وُلدي أنا ! وتبرأ منّي ؟!

يفتاح

أيّها الحفنة الرَميمُ من الطّيبة، والكدْسُ من جراح أثيمهْ،
لا، وراحيلَ، ما تبرّأتُ من وجهٍ تهاوى عليه طيفُ الأمومهْ.

المشهد الثاني

يفتاح وحدَه

ربِّ يكفيك ذلتي في حياةٍ وَفْرة الصَبر، وَفْرة الآلامِ،
أتُرى يطلُع الصَّباح، وَيفنى اليومُ في غُربة الزَمان الدامي ؟

يلتفت إلى حيث مضت أمّه

ذهبت تنشر الصُّراخ وجيعاً، وإخال احتضارَه في ضلوعي،
ويكاد البُعاد يحجبها عنّي، وتبقى برّاقةً في دموعي؛
تركتني إلفَ التأمّل في حالي، وفي طالعي الوجيع القُروحِ،
ورمتْني سحابةً في فضاء التّيه، أُلعوبةً بكفّ الرّيحِ.

رأيُ مجنونةٍ لها ! أم كلام الوحي حرفاً حرفاً رماه اللهُ ؟
وإلى مَ الكِتمان في أمر سرٍّ بدأت تلتقي عليه الشِفاهُ ؟
حَيرةٌ مُرَّة تهدِّم نفسي، وتريني الحياة حرَّى الكُلُوم
أيُّ هَولٍ غداةَ تعرف راحيلُ، وأيُّ ارتعاشةٍ في صميمي !
بين خَطبينِ صارخَين بصدري: ذُلُّ أهلي، وجرحُ آمالِ بنتي،
كيف أحيا، وكيف أسحب رجليّ على الأرض، وهي تنهار تحتي؟!

مستقرّ الرأي

لا وأمضي طلْقاً ووجهي إلى الأحرار، أقضي حقَّ الأُباة العوادي،
إن يَفُتني الفرعُ المجلجِل كِبراً، لا يفتني الرَّدى فداءَ بلادي.
فتراني راحيلُ في النَصر، أو في الموت، أسمى منّي و لم أمْحُ ذلّي؛
وإذا يذكرون ذلّي لديها، تلتقيهم برايةٍ أوْ بنَصلِ !

يحاول أخْذَ درعه عن المحرقة فلا يجده.

المشهد الثالث

يفتاح، راحيل

راحيل

فرحة، تحمل طاقة من الزهر

أإلى الحرب، يا أبي ؟

يفتاح

بل إلى النّصر.

راحيل

هنيئاً لنا افتداءُ الدِّيارِ!

أنا أهواك، يا أبي، قِبلةَ الناسِ، عقيدَ الفوارسِ الأحرار.
أنا أهواك، حاملَ الرايِ سمحاء، ومستقبلَ الطِّعان سخيًّا،
بين لمع الحِراب، بين المواضي، يخفق النَصر من حواليك حيًّا.
تخلع المجدَ والهناءَ على جلعادَ، فجراً مجرّر الأردانِ،
فيقولون في لقائك: «حرٌّ» ويقولون: «بنتُهُ»، وكفاني!

يفتاح

تعشقين العُلى.

راحيل

وأعشقه في والدٍ، مَطلعُ العُلى من ظُباهُ،
فهْوَ مُعطيَّ رفرفاتي إلى المجد، ومغنِيَّ عن عُلى في سواهُ!

تبدأ الفاجعة تتراءى على وجه يفتاح، ويتتابع ذلك في كل من المشاهد التي فيها يلتقي يفتاح ببنته.

عجبٌ ما لوجهك اصفرّ وانهدَّ رُواءً؟

يفتاح

راحيـلُ، خلّي المَفاخرْ.

راحيل

لِمَ يا والدي ؟ ونحن ...

يفتاح

كباقي الخَلْقِ.

راحيل

لا لا، ونحن أَسمى مـآثرْ ؛
نحن فرع الأَمجاد. ليس «شكيمٌ» في ذوينا، وليس «يفتاحُ»...

يفتاح

يكفـي !
لا تزيدي، راحيلُ، لا تتجنّي !

راحيل

متعجّبة

أَيّ ذنبٍ أتيتُهُ؟ أيّ خَسفٍ !
أنا عرّضْتُ، عن قِلًى، بالذليلَين: شكيمٍ، وتِرْبهِ يفتاحا:
مائتٍ، ذكرُهُ ظلامٌ؛ وحيٍّ، يجرح الخاطرَ آسمُهُ والصَّباحا.

يفتاح

لا تَضلّي، راحيلُ، في كفّ يفتاح أَماني الأحرار من جلعادا.
بطلٌ لا يَخُبُّ في ملعب المجد سواه، إذا الفَخار تَنادى.

أُذكري الحرب، واذكري الذُّل، يا راحيلُ، «عمّونُ» في حمانا يجورُ،
عاثَ فينا: الرُبوع فقرٌ، وأَهلوها جباهٌ زُلْفى له ونُحورُ.
لا وليٌّ يقودنا ...

راحيل

لا وليٌّ ؟!

يفتاح

غيرَ يفتاح.

راحيل

والذَّليلُ ذليلُ !

يفتاح

أَقصِري في المقالِ! إن يمشِ يفتاح إلى الحرب، فاللهاثُ صليلُ،
والجباهُ الخَنوعُ غضبةُ مجدٍ، والبلادُ ارتعاشة شمّاءُ.

راحيل

بغضب

يا «لَجلعادَ»! يلجأون إلى النَّذل، فأين الأحرارُ؟ أين الإباء؟

تشير إلى أبيها

أين جلعادُ، فارسُ الظَّفَرِ الزَّاهي، أبي، أَين سيفكَ المسلولُ؟

يفتاح

كأنه يتحسّر

لستُ في الحرب قِرْنَ يفتاحَ.

راحيل

ما قلتَ ؟ وأمساً قامت إليك السُهولُ

في رجالٍ أكابرٍ مرّغوا الكِبرْ اتضاعاً على تراب الدّارِ ؛

بسمةٌ منك أرقصتهم فماجوا طَرَباً يلتقون لَمع انتصارِ،

هتفوا فيك للوليّ المفدّى، والتقاك الشُيوخ بالصَّولجانِ،

وإذا ازوَرَّ عنهُ طرفُك، مادت بهم الأرضُ في ثياب الهَوانِ.

ثِقةٌ فوقها اتّكال على اللهِ! فهل ذاقَ مثلَها يفتاحُ ؟

يفتاح

لا تَقيسي به كَمِيّاً أبيّاً، تخشع البِيضُ دونه، والرّماحُ.

راحيل

أنتَ أعلى سيفاً، أراك صقيلاً سلّه الله مَشرقاً في البريّهْ،

بطلٌ فيك من يشوعَ مُعيدِ الشَمس، ليلاً، بضربةٍ علويّهْ،

تفتل الزّند من تجهّم لبنان، وتلهو بالموت حُمْرُ بنانِكْ،

وتكاد الذُرى تُطايب كفّيك وتصغي لحَمحمات حِصانكْ ؛

أنت أعلى.

يفتاح

لا، بنتِ !

راحيل

بنفاد صبر

ما أنت جلعاد ؟!

يفتاح

بلى، بنتِ ولأقلْ هو بَعدي

راحيل

أين منك الوضيعُ ؟

يفتاح

وحده

ربّي، كفاني !

راحيل

أينَ منكَ اللامكتسي بالمجدِ ؟

ذُلٌّ يفتاح ...

يفتاح

بسطوة وقد نفد صبره

بنتِ، هاتي مجني ونِبالي والسيف.

تخرج راحيل

يا ويلاهُ !

أيّ خطبٍ إن يَفتضِح لكِ سرّي، يا ملاكاً يفتاحُ كان أباهُ !

عُمُرٌ قاتمٌ يمرُّ ولا ينشقّ، قبل انهياره، عن هناءِ،

فيذلَّ ابن آدمٍ بيديه، لا بذنب الأجداد والآباءِ ؟!

يحسّ وحشة الانفراد

أين راحيلُ؟ بتّ أخشى انفرادي، وأرى الأفقَ مسحةً من سوادِ،

ثقُلت أضلعي على قلبيَ الكاهل، واهرَورقت قِوى أجلادي،

ويكاد الجثمان ينهار عنّي، ويكاد الهواء يأبى نهوضي،

أين راحيلُ أرتمي في يديها، وقعةَ النَسر والجناحِ المَهيضِ ؟

يستند تعباً إلى المحرقة

راحيل

وقد عادت بالسّلاح

والدي، ما اعتراك؟ رعشةُ خوفٍ وعلى كفّك انتصار الغُداةِ؟!

يفتاح

وقد استيقظ من ذهوله وآلامه

لا، وعينيكِ، لم أخفْ! وسواءٌ وقعُ دنيا، عندي، ووقعُ حَصاةِ.

وإلى الملتقى.

يأخذ السلاح ويخرج

راحيل

على بركات الله مسراك، والتفاتُ سِهامِكْ !

تفتدي روحُك البلادَ، إذا عزّت، ولم يكفِها افتداءُ حسامِكْ.

المشهد الرابع

راحيل وحدها

كلُّ شيء حولي تغيَّر من عهدٍ، ونفسي في حَيرةٍ وظنونِ،

وإذا التقي أبي فعلى حزنٍ وعهدي به ضحوكَ الجبينِ.

أيُّ سرّ يحوطني بقنوطٍ، وأنا بعدُ، في ربيع الشباب ؟!

لم تمرَّ الأحلام في خاطري بعد، ولم تحظَ في الدُّجى بجوابي.

مَنعوني بالأمس لقيا التي جُنّت تنادي باسمي، وتطلب خِدري،

ورَمَوني في عزلةٍ أجدُ الأفواه همساً، والعينَ لفتة سِرِّ.

أغانٍ من الداخل

رجّعي، يا رياحْ،

هينماتِ الهناءْ ؛

وآفتحي باب السماءْ

للعذارى الملاحْ.

راحيل

متجهّمة الوجه

مُنشداتٌ! والناسُ في غمرة الذُلّ، وسيفُ العُداة في جلعادا؟!

مُنشدات أم خالعاتٌ على الأبطال روحاً رَدّ الجهادَ جهادا؟!

اغانٍ من الداخل

رجّعي، يا رياحْ،

زمزماتِ القنا،

وآجتني طيبَ المُنى

عن سيوفٍ صِباحْ.

راحيل

فرحة

نَغَمٌ ناصِعُ المُنى، أحمر الإرعاد، يَنشقّ في رحاب الفضاءِ،

لو يحولُ ارتعاشةً في صُدورِ الناس، شالت بِهم إلى العلياءِ!

إلى المغنّيات

يا عذارى جلعادَ، غنّين بالسّيف، وهِجنَ الرُبى، وهجن الصُخورا،

وآمتشقنَ الرّجالَ من حُلل الأطيافِ، وابعثنهمْ لهيباً ونورا.

تغنّي على النّغم نفسه

غنِّ، يا جبلي،

بالأماني السِّماحْ،

وآمتشق أحلى الرِماحْ

لِيـد البطـلِ.

...

فـارسٌ آمَنـا

ببلوغِ الأملْ،

يرتقي أسمى القُللْ،

يُرقـص الزَمنـا.

...

قُمْ بنا، يا جبـلْ،

نحتفي بالشُروقْ.

لكَ لو تدري حقوقْ

مثلمـا للـدُولْ!

شتار

الأسطورة

يا روعةَ القِدْم المُطلّهْ
خَلَلَ التّرفُّع والمَذلّـهْ،
سِيّانِ أرقصتِ الزَمانَ
وشِدْتِ فوق يديك جهلهْ؛
أنا دونَ هيكللكِ الرَفيعِ
أبثّك الإجلال كلَّـهْ.
جرَّحتِ آهاتي، وألقاها
علـى شفتـيَّ نَهلـهْ ؛
ما شئتِ كوني ! فالألوهة
في وشاحكِ مستظلّهْ !

الفصل الثاني

المشهد الأول

راحيل ثم تامار

راحيل

ملعبَ النورِ، ملعبَ العِطرِ، يا جلعاد، ها أنت قِدّةٌ من ظلامِ؛
خضّبت دُكْنَةٌ جمالَ حواشيك، فبَهجُ الضُحى بظلّك دامِ!
لم يجئ بعدُ مُنْبئٌ عن لظى الحرب، وعن قِرنِ والدي في الطعانِ
قيل: إن يدخلِ الوقيعةَ يفتاح يرجّحْ جلعادَ في المَيدانِ.
وإذا أُنكرُ انتصاراً على النَذلِ، فلا أُنكرُ الظُروف العُجابا،
رفض الحرب، مثل جلعادَ، بالأمس، فهلِ يَلْتوي الذُليلُ رغابا؟
هيِ تامار، خِدنتي، تحمل الأنباء بِكراً من الثِقاتِ الناسِ،
ذكَرت حيرتي فجاءت، ولا بدَّ، إلى عزلتي بكلّ مؤاسِ.

تامار

بِشرَنا، أختِ، بِشرنا! رَضيَ اليفتاح!

راحيل

جوزيتِ أَلفَ بُشرى لبشرى !

تامار

صُبْحَ أمس أنتخي. وما هي حتّى خاضها يُلهبَ البواسل طُرّا
ما درينا إلّا مساءً، فقمنا في قرابين بكْرٍ وصلاةٍ ؛
أُنظريها، جلعادَ، قطعةَ نارٍ تتدانى من مبدعِ الكائناتِ:
الحنايا معابدٌ وصلاةٌ، والأيادي كِنّارةٌ ودفوفُ،
وانظري الجوَّ دفقةً من أغانٍ مسمعُ الكون دونهنّ رهيفُ ؛
وانظري الحُلمَ...

راحيل

أيَّ حُلمٍ تذكرتُ وجيعِ الألوانِ مِلءَ جفوني ؟!
في منامي رأيت سيفَ دماءٍ ...

تامار

مقاطعةً

سيفُ يفتاح في بني عمّونٍ ؛
فاطرَبي.

راحيل

لا طرِبتُ ! حلمي مخيف يملأُ الصَدرَ رعبُه والمآقي،
فيه زهو البياض يرقص مِغناجاً على حُمرة الدَم المُهراق:

كنتُ في الحلم طَلْقةَ الوجه والقلب، كورقاءَ في الرُبى غنّاءَ،
حسدتني الزُهْرُ العُلى، حسدتني المُنية البكرُ في هوًى عذراءَ،
حين نوديتُ من علٍ أنْ دَعي جلعادَ، والنَصر، واقبعي في الظَلام.
فعصيتُ السَماءَ — عفوَك، ربي! — وإذا قِبْلتي بَريق حسامٍ،
وعصورٌ تدور حولي سِراعاً، فكأنَّ الزَمانَ شقّ السُتورا،
عاصفُ الرّيح بات صوتَ صراخ، وسواقي «جلعاد» دمعاً غزيراً.

تامار

بخوف

أيُّ حلمٍ، راحيل!

راحيل

ما زلتُ حيرى في رُؤاهُ على توقّع خَطبٍ؛
وأحِسُّ المساء ملء جفوني، وعلى بسمتي الجريح، وقلبي!

تامار

حدّقي، أُختِ: في البعيد سيوفٌ لامعاتٌ بين الغبارِ، وخيلُ.

راحيل

وقد ازداد تشاؤمها

أتراهم فرسانَ عمّون في نصر، جَرى خلفهم من السَبْيِ سيْلُ؟
ملأوا السَهل والرُبى، فعلى جلعاد ظِلٌّ من الدُجى والفناءِ،
لا رجالٌ تذود عن قدسنا، والنَاس تمشي في الذُل مِشيةَ شاءِ.

يكون التَشاؤم قد بلغ منها حدًا قصيًا.

يا صباحَ الدمار، أين غسولُ العار ينصبُّ من فِجاج السَماءِ!!
أين من ينثر النُجوم صخوراً، ويكبّ النيران في الأرجاءِ!
يترك الموت مفلتاً في البرايا، ويهدّ الجبال فوق الجبالِ،
يعجُن البيدَ بالبحارِ هؤولاً، عاصفاتٍ رياحُها بالزوالِ،
ويعيد الغَمرَ القديمَ يعيد اللّيل بالويل زاحفاً والمنيَّهْ!
إن تخلَّت عنّا السما لا تعالت أو تجاهت على جمال البرِيّه!

المشهد الثاني

راحيل، تامار، المجنونة

المجنونة

عِشرونَ ألفَ أسيرٍ

راحيل

بحسرة

أتُراها البُشرى ؟ ..

المجنونة

وألفُ قتيلٍ

راحيل

بغضب

حبَّذا لو قضَوا جميعاً.

المجنونة

قضـــاءٌ علـويٌّ !

راحيل

قضاءُ شعبٍ ذليلٍ !

المجنونة

ومئاتٌ من الخيول السِّنيّاتِ، وعشرونَ وزنةً من نُضارِ.

راحيل

لا ذكرتِ الأموال !

المجنونة

لِــمْ لا ؟

تامار

ويفتاح ؟

راحيل

بحسرة وهزء

وحامي الحِمى ؟ وحامي الذِّمارِ ؟!

المجنونة

بين لمْع الحراب... بين الأُسارى...

راحيل

مقاطعة

يا أذلَّ العُبدان فيٍ عَمُّونِ !

قدتَ جلعادَ من مذلّة هُونٍ أوجعتهُمْ إلى مذلّة هُونِ !

رُحتَ ...

المجنونة

راحيل ! ..

راحيل

رُحت عبداً، وعبداً عدتَ ...

المجنونة

راحيل ! ..

راحيل

لو رَجعتَ قتيلا !

عدتَ حيًّا تجرّر القيدَ ...

المجنونة

قلتِ القيد ؟!

راحيل

يبقى ذاك الذليلُ ذليلا !

المجنونة

ما تقولين؟ ما تقولين، راحيل؟ ويفتاح قِبلةُ الأمصارِ،
أنزلَ العزَّ في الربوعَ، وخلّاها انتصاراً يختال إثرَ انتصارِ.

راحيل

ما تقولين، يا عجوزُ، انتصرنا؟ نَحْنُ؟!

المجنونة

نصراً غنّت به البيداءُ !

وكأنّ الفرح قد زاد في خبلها

كنتُ في الحرب كلَّ شيء، وكان العِرْقُ منّي يشاءُ ما لا يُشاءُ

تامار

لراحيل

من تكون العجوز ؟

راحيل

مجنونةٌ تَهذي؛ دعيك، الجنونُ حَرٌّ وبردُ ؟!

المجنونة

أنا قدتُ الرجال.. عِرقيَ.. وُلْدي... أنا أُمُّ الحُسام والكُلُّ غِمْدُ

راحيل

بإشفاق

هاجت المرأة الشّقيّة.

يسمع غناء من الدّاخل

تامار

لكن أتراني بما رَوَوا بُلبلتُ

العذارى في فرحة وغناءٍ، أأصبتُ الهُدى أنا أم خطِلتُ ؟

راحيل

بحسرة

جالَ في خاطري انتصارٌ، فأمسى هَذياناً مُرًّا على هَذيانِ ؛

أملٌ أشرقت جوانبُه، وانشقّ عند استقباله عن هَوانِ.

المجنونة

ممسكة براحيل وقد أوشكت أن تخرج

أين تمضين، يا ابنة الظّافر الغالي ؟؟

راحيل

دعيني، واخْلِي معالم داري.

المجنونة

تطرديني ؟!

بإشفاقٍ وندم
طردتُها، وبصدري بعض مَيلٍ لها، وبعض وَقارِ.

المشهد الثالث

المجنونة وحدها

سكوت طويل تسند المرسح في خلاله أغانٍ تجيء من بعيد. وفجأة تلتفت المجنونة الى الدّاخل فرحةً، وكأنّ العارض قد خفّت وطأته

قرُب الظّافرون من منشداتِ النّصر، يجري جلعادُ فيهم حُبورا،
مائجُ الاخضرار في الرّونق الطَلْقِ كأنْ زادَه الرِجال حضوراً.
خلعوا فوقه البطولةَ أبراداً، وشكّوا الظُبى عليه نجوما،
أيُّ قِرنٍ أمامهم يعتلي المُهر المُجلّي، ويستطير الغيوما.
فارسٌ قدُّهُ المضاءُ من الشُمّ الرّواسي، والشُرّع الأسيافِ،
قرّبي منه، قرّبي منه، راحيلُ، وبثّي لُقياه طِيبَ القوافي.

يسمع غناء فتاةٍ غريبة، فتقابله المجنونة وكأنّ العارض قد عاودها

وأزيحي عن دَرْبه قَينةً دكناءَ تشدوه نغمةً دَكناءَ،
الغناءُ الغناءُ عصفة إرعادٍ، وأشباحُ مأتم تتناءى،
صرخاتٌ غريبةٌ توجع الصّبْحَ، وجهش على السَّنى، واحتضارُ،

أَين راحيل تملأُ الأفْق تحناناً فيَغوى على يديها النَهارُ؟
قدّمتها عذراء قسراً، وألقتها أمام القِيان، بين الدفوفِ.

يرتفع صوت راحيل، فتعود المجنونة إلى هدوئها

أنشديه، راحيل، أشجى من الحبّ، وأسمى من اصطكاك السُّيوفِ،
وابعثي اللحن رافلاً، واملئيه بحفيف الجوانح البيضاءِ،
في أناشيدك الفتيَّة شيءٌ من خِضاب الأسى، ولون الهناءِ.

بدهشة، وقد عاودها العارض

ما دهى موكبَ العلى؟ أجْفل الفارسُ، أم مادت الرُّبى بالجوادِ؟
أمر الناس بالرُّجوع وألوى كاسفَ الوجه، واهيَ الأجلادِ.
مستضامٌ، ترجَّل الآن، وانهال على المنشدات يصرخ ذعرا.
هربت منه لؤلؤات بلادي، غير راحيل، فهي تهتِف بِشْرا.
وهو ساجٍ، يُلوي عليها وتُلوي: دفقةٌ من سنًى على لبنانِ،
أيّ سرٍّ في قلبه يترك الصبحَ مريضاً في غمرة الأحزانِ؟
فالروابي مثل ازورارٍ عن الهَدْيِ، ومثل اختلاجةٍ وانتهاءٍ،
والهدوءُ الرحيبُ، والقيظ والنارُ انهيارُ الفضاء تلوَ الفضاءِ.

بعد سكوت وتأمّل

لِمْ تُرى الظّافر المُجلْبب بالقوّة، يبدو مجرّحًا بالذُّهولِ،
يمسح الدَمع خِفيةً عن عيون النَاس، عن نفسه، وعن راحيلِ!

سكوت طويل، أغانٍ مُبهمة تجيء من بعيد. تقعد المجنونة دون تعمُّد في ظلّ المحرقة بحيث لا يراها الدّاخلان

المشهد الرابع

المجنونة، يفتاح، راحيل

راحيل

هاتِ، يا والدي، عن الحرب، فالدّمعُ بعينيك ريبةٌ في انتصاركْ،
والتقاءُ الحسان بالبسمة الحَرَّى دليلُ انتحابةٍ في قراركْ،
أتُراها هزيمةً ؟!

يفتاح

لا، وراحيلَ، ويفتاح في انتصار فَرْدٍ :
أنزل العزّ بيننا، وكسانا بُرد مجدٍ رحبٍ على برد مجدِ،
فجرُ نصرٍ يحيا على الأعصر الغرِّ، وتشدو جلاله البيداءُ؛
عاد يفتاحُ بالغنائم والأسرى كأنْ للعُلى هو اللألاءُ.
ضرب الضَربة السَخيّة في عمّون، فانهدّ عزّها بحسامهْ،
حصد الهام، فالتِلال تجلّلنَ بهامٍ وقفٍ على أقدامهْ.
لقي الجيشَ في «عروعير» صبحاً، ينزل الرُعبَ دفقُه، والظَلاما،
تتنزّى الهمّات عن جانبيه، فيخال التَهديد منه حِماما،

لا انتهاءٌ له، ولا وَهنٌ يُضرَب منه، فتبدأُ الهيجاءُ.
وتلوّت رجالُنا مضضَ الحيران لاقته فجأةٌ نجلاءُ؛
لم يُطِقْها يفتاحُ وقفةَ جبنٍ؛ وعلا صوتُهُ يُصمّ الرِياحا،
أمر القوم بالهجوم، وبالموت، فأدمى السّنى، وأدمى الصّباحا،
كم نفوس تَنَاثرتْ والعوالي، وجسوم تعانقَتْ المـواضي،
خطبةُ السَيف خطبة الحقّ، والكاسي ثيابَ الدِّماء كاسي البياضِ.
صخبُ الحاملين ملءُ الصَحارى، ونزاع الفرسان ملء البرايا،
والتلال الدَكناء من جثث الأبطال، والأفق من لهاث الضَحايا.
يتهادى يفتاحٍ في مطلع الجيش، على عزّة الأبيّ الظَافرْ؛
قيل: مستقتِلٌ، وقيل: شجاعٌ عشقته، فهادنته البواترْ.
يتحاشى عن الجبان، ويجري عارضاً صدره على المقدامِ،
فإذا يلتقيه في فجأة الطالب، يرمي بنفسه للحسامِ.
وتردّى النَهار بالدم فانزاح، ووافى المساءُ قبل المساءِ؛
ورأى الناسُ عمرهم مثقل الخطو، كسولاً إلى لقاء القضاءِ؛
فتنادى عصفُ المنيَّة فيهم، تتجافى منه الرُّبى والسُهول،
واذا فجعة الحراب فناءٌ، يتلوّى على العدى، ويميلُ؛
واذا دفقةٌ من البدر تجلو أكمات الأحياء والأموات،
عرف النّاس أيّ حظٍّ أصابوا، فإذا السَّيف في ظهور العُداة.
وسرى الفتحُ من «عروعير»، يبغي حدَّ «منّيتَ» والقرى العشرينا،
وعلى رقصة السَّنى والأغاني داس يفتاح في بني عمُّونا.

راحيل

طبتِ، كِنّارتي. تَغنَّي تغنّي! واصغَ، يا كونُ، واطربي، يا سماءُ!
وتباهَيْ بها بطولةِ قومٍ، هم جبينٌ إلى العُلى وَضّاءُ!
واملأي الأرض باسم ربِّك مجداً، باسم جلعادَ، زيد مجداً أثيلا،
واقطِفي الشُّهب للذي رأسه فوقُ، وصَوغي لشعره الإكليلا!

تلتفت إلى الدّاخل كأنّها تناجي يفتاح، بينما يفتاح إلى جنبها يكظِم دموعه وآلامه

يا بريقَ الآمال، يا جانيَ المجد، رعاكَ الجلالُ من لبنانِ،
واشرأبّت زُرقُ النجوم تحّييكَ بشتّى الأضواء والألوانِ.
يا صلاةَ الرُّجوع لله بعد الكفر، بعد المُحلولكات الخطوبِ،
ذكَرتك العذراء في صفوة البال، وفي هجعةٍ بحِضن الحبيبِ.
عفوَ أردانكَ النقيّة، يا يفتاح، عفو الرمال تحت خطاكا!
أنا جدّفت، من غروري، على القدس، غداةَ اقتربتُ من ذكراكا.

يفتاح

عدت، بنتي، إلى الصواب، وألفيتِ، لِيفتاح جُودةً أختَ نَصلِ

راحيل

جودةً؟ لا. وليتَني أعرف الظّافر في مثلِ والدي طيبَ أصلِ

يفتاح

تظلِمين اليَفتاح، راحيلُ.

راحيل

لم أُظلِم. وحقِّ تكبُّري واعتزازي !

تشير إلى أبيها، وكأنّما تذكّره بالكبر الذي ربّاها عليه

وابي بثّني النّياسمَ من تِيه الرّواسي، ومن شموخ البازِ.
عشتُ في قربه، يتيمةَ أمّ ٍ، فأنا منه دنيواتُ الهناءِ؛
ما لهُ مُنيةٌ سواي، ولا لهوٌ ؛ يريني في الأرض ظلَّ السّماءِ.
كلُّ شيء حولي علاءٌ وكبرٌ، كلُ شيء ملوّن بالكمالِ.
ما قرأتُ التاريخ إلّا جليلاً، في فم يبعث الكلام لآلي؛
أو رأيتُ الأعمال إلّا كباراً، من يدٍ خصْبةِ النّدى والسّماحِ ؛
وكتابي أبي، أرى فيه من موسى، كليمِ العُلى، ومن يفتاحِ .
وإذا نلتقي على ذكر أمي، ففضاءٌ مغرورقٌ بالشُعاعِ ،
أو نغنّي بمكرُمات جدودي، فرِباعٌ غراءُ إثرَ رباعِ.
خلّنِي، خلّني، على ذكر يفتاح، أرى فيكَ أطيب النّاس ذِكرا؛
وإذا تَشرفُ البلادُ بيفتاح وجلعاد، تلتقيك الأبرّا.
هاتِ خبّر عن روعة الحرب والنّصر، وعن بُسّلٍ لديك أجادوا.

يفتاح

كلُّهم باسلٌ.

راحيل

وأيّ الرّجال الغُرّ جلّى ؟ يفتاحُ أم جلعادُ ؟

يفتاح

وحده

ربِّ !

راحيل

قلْها بلا اتّضاعٍ !

يفتاح

بعد تحيّر

كلانا.

راحيل

لا ! وأنت المجرّر المجدَ أصلا ؛
هو في الطّعْن عِدْلُ ماأنت، لكنْ لك أصلٌ يُرخي على الشّمس ظِلَّا.

يفتاح

ما تقولين؟ بعد لألأة النّصر، وبعد ارتعاشة الرّاياتِ،
بعد خَوضِ الطِّعان مرتفعَ الرّأس، وخلع العُلى على السّاحاتِ،
بعد نسج الشُّموس بردةَ مجدٍ، لا تَرَين اليفتاح غير وضيعٍ ؟!

راحيل

هو ما قلتَ، يا أبي،

يفتاح

وجلاءُ الفتح، يا بنتِ، عن غوالي الرُبوعِ،
وانتشالُ الأطفال من غمرة الموت، ومنعُ المخدّرات النِساءِ،
وحِماء الأطهار فينا العذارى، من فجور الوحاوح الأعداء،
والفِعالُ الغُرّ العُلى، من أتاها غير يفتاحَ ؟

راحيل

انت، والامجادُ.

يفتاح

ما انا والرجال الّا دمى خرسٌ؛ ولولا يفتاحُ، صمٌّ جمادُ.
بثّ فينا العلى، وقادَ الشّتّاتَ النّزْر منّا، مجرّحاً، ملتاعا،
فإذا نحن نقتفي إثر يفتاحَ فنمضي إلى الخيالِ سِراعا.
نحن، لولا اليفتاح ...

راحيل

تقاطعه بمثل الغضب والعتاب

يكفي ! تراءى لك سَمحُ الطِّعانِ سمحَ الأصلِ؛
إمتدحْ طعنةَ الموفّق، يا جلعادُ، لا تمتدحْ ذراع الأذلِّ.

يفتاح

وحده

ربِّ !

راحيل

حاربتَ جنبه، فغزا قلبكَ بالوَفْر من جميل الطِعانِ،
ونسيتَ الأصل الذّليل ؟!

يفتاح

أَناةً ...

راحيل

مستطردة

واشتريتَ العُلى له بالسِّنانِ ؟!!

والدي، يا سليلَ مجدٍ عريق، لي رجاءٌ إلى هواكَ، وحيدُ:
لا تجِد في الفَعالِ مغفِرة الذلّ، فلا يُشترى أبٌ وجدودُ.
أنا أَخشى مَغبّةً وَفْرَةً الشّرّ، إذا يمّحي الخَنى في الوليدِ؛
يطهُر المرءُ وهو يرعى رؤى اللّعن بثغر الحفيد قبل الحفيدِ.
لا أُطيق امتداحَ يفتاح من فيك، فدعني أمضي.

تخرج

المشهد الخامس
يفتاح، المجنونة

يفتاح

حنانَك ! ربّي،
أَيَّ كاسٍ تذيقني، يوم نصري، من دمائي ومن حشاشة قلبي؟!
أنا كفّرت عن خطيئة آبائي بعمرٍ من الأسى والعذابِ،
واعتزلت الدُنيا اغتفاراً، وضحّيتُ هنائي، تقرّباً، وشبابي !
ونذرت الثمين والسَّمحَ قربانَ ظهوري على العَديِّ، وثاري،
وتماديت أنذر الغادة العذراء أُولى المغنّيات انتصاري،
وإذا أَلتقي جموع العذارى، تتراءَى راحيلُ نصبَ جفوني ؛
وأُشيح الأنظار عنها فألقى، ما تلفَّتُّ، وجهها يلتقيني ؛
وسأقضي، يا ربِّ، بعدُ على بنتي، فيا ربِّ، هل كفتك المنيّهْ؟!

المجنونة

تكون قد تركت مكانها والتقت يفتاح وجهاً لوجه
وَيلكَ، يفتاح، ما يُراود عينيك ؟

يفتاح

هارباً

دعيني، نذرتُ بنتي ضحيّهْ !

المشهد السادس

المجنونة، ثم راحيل

المجنونة

أيّ نَذْرٍ يفتاح، لا شرعةُ الله رأته، ولا بَلاءُ السِنين !
أنا مجنونةٌ، وأنتَ على رشدٍ ! فخذْ من فمي رشادَ الجنونِ.

تدخل راحيل فترتمي المجنونة دونها ضارعة

أُهجري، بنتِ، مضربَ الظافر الدامي، وخلّي مطارفَ الأُرجوانِ،
وتعالَي إلى حياةِ البراري، فهي أبهى من بهجة الصَولجانِ.

راحيل

متذكّرة الحلم

صوتُ حلمي !

المجنونة

تعجّلي، فهناءُ العمر مرمى فراشةٍ من سراجِ !

راحيل

تعود إلى نفسها وكأنّما تهزأ من المجنونة

أهجرُ البيت مثل مجنونة ؟

المجنونة

لا، مثل مَن يتّقي جنون التّاجِ !

أُسرعي، بنتِ.

راحيل

في حنانكِ شيءٌ من أبي في تعطُّفٍ وتَمنٍّ.

المجنونة

في تمنّيهِ ؟ في تعطّفهِ ؟ لا.

راحيل

بعجب

أَنتِ تأبَينَ ؟

المجنونة

بحسرة واعتزاز

كلُّ ما فيه منّي.

راحيل

بقلق

من تكونين ؟ يا عجوز ؟

المجنونة

دعيني واهربي قبلما يفوت الأوانُ.

راحيل

وقد تزايد قلقُها

أَنبئيني من أنت أتبعْكِ.

المجنونة

خلّيني وشأني فكل ما بي هوانُ !

راحيل

تهزُّها فاقدة الصَّبر

هل تقولين ؟

المجنونة

لم أعد في جنوني فأَزيدَ الضَّنى بقلبٍ حزينٍ،
أُهربي.

راحيل

إن كشفتِ سرَّكِ.

المجنونة

لا ! لا !

راحيل

لِمَ تأْبَين ؟

المجنونة

لم أعُدْ في جنوني.

ترى يفتاح مقبلاً

قَرُبَ السَّيفُ، فاتَّقي السَّيفَ، راحيل !

راحيل

بحيرة

أبـــي !

المشهد السابع

المجنونة، يفتاح

يفتاح

يكون قد رأى أمّه وبنته معاً

مَنْ أرى ؟ خباءَك، بنتي.

المجنونة

وقد حوّلت تضرُّعاتها إلى يفتاح بعد أُن خرجت راحيل

رحمةً بالجمال، بالرَّونق الضّاحي، بزهر بِكْر الجمال ونبتِ !

رحمةً بالشّباب ! ...

يفتاح

مَن قال ؟! ...

المجنونة

يفتاح ...

يفتاح

إلهي ! أتسمع آسميَ داري ؟!

إخفِضي الصَّوتَ.

المجنونة

عَفوَ نصرِكَ، يَفْتَاحُ ..

يفتاح

آخفضي الصّوت عن نسيمٍ سارِ

كلُّ شيء في دار راحيلَ كِبْرٌ، في ثراها، في المنحنى، في التُلولِ،

إخفضي الصّوت يُجفِلُ المربع الذاكي براحيلَ، أو هوى راحيلِ.

المشهد الثامن

يفتاح، المجنونة، راحيل

راحيل

يكون قد تقدَّمها جلبة من الداخل

والدي، والدي، أناتك بالنَذر، ورُحماك بالعذارى الحِسانِ !

يفتاح

سمِعتّنا ؟!

راحيل

رحماك، جلعادُ.

يفتاح

وحده

جلعادُ ؟

لراحيل

اطلبي، إن أردتِه، صولجاني.

راحيل

صولجانٌ؟! أبي، بجلعادَ أبكارٌ حسانٌ نذرتَ منهنّ بكرا،
أعْفُ عنها.

يفتاح

ربّـــي !

راحيل

وأبكار جلعادَ مروج الربيع نَوراً وزهرا،
فتصوّرْ منهنَّ مغناجَ خصرٍ تتلوّى على لظى النِيرانِ،
يلفَح الوهجُ جبهةً من محيّاها، وثغراً لم تَلقَهُ شفتانِ؛
ويحرُّ اللهيبُ زرقةَ عينيها، فتُغضي عن عالَمٍ في آنهيار؛
ويغيم الخدّان عن سَحَر رحْبٍ تراءى عرض اللظى والشّرار؛
ويهيج الصّدرُ المهدَّمُ أَشلاءَ الأماني ملويَّةَ الأعناقِ،

مثلُ دنيا تموت، مثلُ خيالٍ يمّحي عن معالم الآحداقِ ؛
فالعصور الطّهورُ يركضنَ إعراضاً عن الكون ضاق بالإثم صدرا.
ويغيضُ الضِياءُ عمداً، ويَبكي الزَهرُ ...

يفتاح

بنفاد صبر، وقد تصوّر بنته نفسها على المحرقة بهذا الشكل الذي تصفه هي دون أن تعلم

راحيل، يا ربيعي الأغرّا،
يا نشيدَ الأضواءِ، يا زُرقةَ الحُلمِ، فداكِ السَّنى بسيف أبيكِ،
وفَداكِ النَصرُ المجلجل في الدُّنيا، ورجعُ الصَلاةِ والتَبريكِ؛
أنتِ نَذري !

المجنونة

يفتاح !

يفتاح

أُمّـــي !

راحيل

باستفهام، فحسرة، بعد أن تنقل طرفها من يفتاح إلى المجنونة فتفهم كلّ شيء

تُـرى ؟! ...

المجنونة

يفتاح، رُدَّ الظلامَ فوق الظَلامِ،
واطْوِ من نصرك البرودَ السنيّاتِ، وزفَّ الدُنيا سيوفاً دوامي،
واملإِ الأرض والمعالم شرًّا، وابعث الرِيح بين جَهشٍ وجَرحٍ،
وتحدَّ العُلى، ولا تغمسِ الكفَّ وتنهدَّ في دمٍ منك سَمحٍ!

تمضي مولولة

راحيل

والدي، ما شجا فؤاديَ، عند الموت، غيرُ النِداءِ: «يا يفتاحُ»

لنفسها

يا مُنايَ البيضاء، كيف تموتين ويبقى هوًى ويبقى صباحُ؟!
أَعشِقتِ الخريف، والكون صحوٌ عَلويٌّ، والريحُ عِطرٌ خَفوقُ،
أم تصبّاك نثرُ عقدك في النور، فيبكي غِوى صباك الشُروقُ،
وإذا في الأثير، منكِ جنازاتٌ، وغصّاتُ آهةٍ وجراحُ!

اغانٍ من الداخل بعيدة :

رجّعي، يا رياحْ،
هينمات الهناءْ،
وافتحي باب السّماءْ
للعذارى الملاحْ !

راحيل

العذارى يُنشدن، والأَكَم الخضراء تزهو بهنَّ، والأدواحُ،
والأَماني بيضٌ على قُبب «الكرمل» والسَهل هازجٌ بالعذارى،
وأنا أُلتقي الحياةَ سواداً، وجلالَ الحياةِ دمعاً وعارا!
والدي، أعطِني، حنانَك، شهرين أُناجي، مداهما، آمالي ...

يفتاح

لكِ ما شئتِهِ !

راحيل

مستطردة

وأَقطِفُ عمري زهراتٍ بيضاً كَوجهِ خيالي !

ستار

المجدليّة

الطبعة الاولى ١٩٢٧
الطبعة الثالثة مصححة ١٩٩١

إلى Q.A.

في الشّعْر

أيّنا[1]، في حبّه الأوّل ــ ما اتفق له أن ردّد بين يدَي حسنائه : « هل عند الوردة، يا حبيبتي، خبرٌ عن عطرها ؟ هل تَعِي الوردةُ أنّها الطريفةُ ذات الشَّذا المُسكر ؟ »

المرأة من جمالها كالوردة من أريجها ؟ لربّما بتقريب كهذا نكون قلنا ما ماهيّةُ وَعْيٍ من ماهيّة لاوعي.

الوردة لا تدرك أنّها الوردة. وهو، على ما يقول العاشق، موقفُ الحسناء من حسنها.

---

١) الشُّعراء والعلماء، الذين استلهمت وإليهم استندت في دعم هذه الخواطر، أكثر من أن يذكروا.

روح مناجاتِهِ اذن أنَّ فتاته لو درت ما جمالُها لشاركتِ الناس عبادةَ نفسها !..

بَيْدَ أنَّ الوردة هي، على الحقيقة، غير واعية. أمّا المرأة فشأنها آخر : جمالُها، بعضُ صفاتها، سرّ وجودها، كلُّ ذلك قد يفوت منها قوى الوعي، ولكن يستحيل أن يفوت قوى اللاوعي.

اللاوعي في الإنسان طاقةٌ ولا كأحدّ الوعي.

لا يستغرب هذا سوى اللامتمرّس بأشياء العقل. أمّا مَن كتب أو خطب أو تحدّث، ولو مرّة، حديثاً أخّاذاً فلا يجهلها حقيقةً راهنة. إنّنا، على قول شارل بالي، إذ نتكلّم فإنّما نتكلّم بشكل لاواعٍ، لا نُفكّر بألوف التصوّرات يسلسلها فكرنا في كل جملة نباشر : بشكل لاواعٍ ننتقي الألفاظ التي هي أقرب إلى الفهم أو أفعل في الذهن، بشكل لاواعٍ ننحت لنا أحياناً صِيَغاً جديدة ما كانت يوماً في اللغة وما ندري أي أصول مكتنفة بالسرّ راحت توحيها إلينا في تلك الهنيهة، بل بشكل لاواعٍ يتمّ أخيراً عملُ الفاهم. وبقدر ما تكون فكرتنا لاواعية تكون أسرع إلى فقهه وتكون أدقّ وأعمق. وعلى

العكس، بقدر ما تغدو فكرتنا مدروسة تحليليّة تغدو متعثّرة دون فهم الفاهمين. وشُدَّ ما نرى لفظة أفلتت منّا إفلاتاً، أو كان تلفّظُنا بها سببَ دهشتنا نحن، تَلِج أفهامَ السّوى بسهولة لا تعرفها جملةٌ منطقيّة واضحة. ويخيّل إليّ أنَّ الفكرة اللاواعية وحدَها تستهوي الناس. وما من شكّ في أنَّ اللاوعي أفعل وسائل التّفاهم.

وفي تحرّيات جول كومباريو أنّ الموسيقى، عند الموسيقيّ الحقّ، أوضح من الكلام. وما كان الكلام إلّا لِيَزيدها إبهاماً. وهو يزعم أنّنا إذ « نفكّر دونما مفهوم » فإنّما نفعل لا لنتخلّى عن الأشياء التي يمثّلها مفهومُها بل، بالعكس، لنستولي عليها بأقوى.

عجيبةٌ قوّةُ اللاوعي، سواءٌ في الكلام أو في الفهم. وإنها لكذلك حتّى في الأغراض التي تبدو أدعى إلى استخدام العقل.

أرى أنَّ اللاوعي هو رأسُ حالات الشّعر. ورأسُ حالات النثر الوعي.

قبل إبداعي الشّعر، بل في ذروة إبداعي، لا أكون واعياً في ذاتي ولا واحداً من الأشياء الواضحة. والثابت

(ويمكن الاستناد في ذلك إلى العالم هنري بوانكاره) أنّ لا أثرَ فكريًّا ذا قيمة، رياضيًّا كان أم سياسيًّا، موسيقيًّا أم شعريًّا، تحقّق في الضَّوء.

أمّا كتابتي النثر فتكون نتيجةً لما عقلته سابقاً، نتيجةً لما استنجدته من فكر وتصوّر وعاطفة، تمّ بتمام وعي أظهرته للناس متوسّلاً اللغة.

النثر فِكَر، والفكرة نَعِيها، وهو صور والصورة نَعيها، وهو عواطف والعاطفة نعيها. عناصر النثر جميعاً عناصر وعي. النثر في طبيعته وعي بوعي. أمّا الشّعر فلا.

الشاعر في ذروة إبداعه لا تخامره أفكارٌ، صور أو عواطف، وهو إن خامره شيء منها أفسد عليه العمل. عناصر الوعي (ولم أستثن العاطفة، صنمَ النظّامين الأفذاذ...) لا تلعب في الشّعر أيَّ دور.

لأواجه، ولو لماماً، منشأ النثر.

* * *

لا مَناصَ من الإقرار بأنّ الوعي هو نثر اللاوعي. فالفكرة إذن، شأن الصّورة والعاطفة، نثر الحالة الشعريّة، تعبيرٌ عنها، باهِت مخفّف، يدنيها من أذهان الذوّاقة المحدود.

نتناول مجلّة ونقرأ :

... أحبّكِ منكسِرَ الطرف، خوف
انفلاتكِ من نظرٍ طامعٍ،

وأمسحُ من عَبرتي في الخَفاء
فلا تقعين على دامع.

وثغركِ لي فُلّة الفُلّ باتتْ
يتيمةَ ذاك الشّذا الماتع،

فذِكْرُ الربيع على سمعها
حرامٌ وذكرُ الهوى الرّاجع !

ونقلب الصفحة فإذا الشرح...

وما الفرق ؟ الأبيات غمرتنا بحالة سِرّيّة الماهيّة، لكنّها تركتنا غيرَ ما كنّا وفوق ما كنّا، ردّتنا أكثرَ تآلفاً مع حقائق في الكون ثَبْتة، أمّا شرحها فلم يَزدْنا إلاّ معرفة بها، أعطانا علماً بحالة الشاعر، لم يعطِنا الحالة.

الشعر ؟ إنّه لِسَراة العقل، لِطبقةٍ مصطفاة، باستطاعتها التذوّق. أمّا النثر فللتلامذة ــ وقد يكونون خارج المدارس...

الفرق بين الشِّعر والنّثر ؟ إنّه لكالفرق بين سَماع المعزوفة وقراءتها.

* * *

ما تُرى، يحدو بي حيناً إلى كتابة النَثر وآخرَ إلى إطلاع الشِّعر ؟

إنْ أنا باشرتُ العمل وكانت تهدر فيّ أشياء بوسع قوى النفس أن تصل إليها، إن كانت لي أفكار وصور وعواطف، وجدتُني تلقائياً أملأُ الصَفحة تلو الصفحة نثراً. أمّا إن كان في داخِلي ما هو فوق طاقة تلك القوى، إن كانت نفسي ذاتُها في حالة فوق الوصف، خالصة، لا تَشوبها فكرة أو صورة أو عاطفة، حالة تُمكّن ذاتَها من وعي ذاتها أعمقَ وأغنى، فأروح تلقائيًّا أُكوكب بياض أوراقي بالشّعر.

الشّعر من لاوعي والنَثر من وعي.

* * *

سؤال : ما يفرّق الشّعر عن سائر الفنون ؟

قبل التعبير عنه، أي عندما يكون لا يزال في ذات

الخلّاق لم يمتزج بعدُ بوسائل التّعبير، يمكن الشِعر وحدَه، أن يشمَل الموسيقى، التَصوير، الرَقص، العَمارة، وما إليها من جمال وراءَه يدُ إنسان. قبل التعبير : حالة من اللاوعي واحدة، لا تتبدّل إلّا إذا اتّخذت شكلاً. تكون الموسيقى إذ نستخدم في إظهار الشعر نغماً، والعَمارة إذ نستعمل رصْف حجارة، والرَقص إذ نتوسّل إعماراً بجسم بشريّ هذه المرّة.

الفنون ؟ لا فنون قبل التعبير.

* * *

أحاول التَغلغل إلى جوهر الشِعر، إلى مادّته إن استجزْت الكلمة.

فيما أنا أبدع أكون لاواعياً، فما أقدر إذن أن أعترف بما جرى لي. سوى أنّ نظرة على حالتي قبل الإبداع وبعده قد ترسل ضوءًا على السِّرّ.

« قبل » الإبداع و « بعدَ »ه ؟ ولكن متى تكون فترة الإبداع، وإلى كم تطول ؟ هل تبدأ من أوّل كلمة من مطلع القصيدة ولا تنتهي إلّا برويّ الختام ؟ لا، وفترة

العطاء الجَلل، فترة اللاوعي هذه، نادراً ما تطول إلى أكثَر من أبيات. سريعة العطَب هي، تعمّر، في غالب ما تعمّر، مدى بيت أو فلذةً من بيت.

إنها كالحالات النفسيّة الخالصة تكاد لا تكون حتّى تقطِّعها فكرة، صورة، عاطفة. فإذا الشّاعر (ومن هنا عناصر النّثر في القصيدة، كلٌّ قصيدة) وجهاً لوجه أمام الوعي. الملهَم يواصل تحويراً وتبديلاً، ولربّما يستأنف استئنافاً، حتى يجد اللّقِيَة، أيْ حتّى يعود إلى فترة من اللاوعي جديدة، أمّا النظّام فيمضي في عمله غير آبِه. فإذا هو ينظِم النّثر.

« قبل » الإبداع و « بعدٌ »هُ يعنيان إذن شاطئيْ تلك الفترة السَعيدة من لاوعي النَفس، التي لا تعمّر سوى هُنيهات.

قبل الإبداع يسيطر عليّ ما أُسمّيه نغم القصيدة. وبقدْر ما يكون عليًّا عظيماً أُطلع ما هو أكثر خلوصاً. ولم يتّفق لي أن انثنيت عن العمل البهيّ إلاّ أوان أفقد النغم، أي أوانّ تأخذ تطغَى عليّ أفكار وصور وعواطف. وبعد الإبداع (وكذلك شأني بعد التذوّق) أُحسّ الكون أكثر

تآلفاً معي منه في المعتاد. فأرجّح أنّني كنت، في أثناء الحالة الشّعريّة، على تآخٍ مع الكون، على مواجهةٍ للأزليّ من الحقائق التي كنت أجهل.

قبل الإبداع سلطنةُ نغم وبعده أثَرُ تآخٍ مع الكون ؟ هل يعني هذا أنَّ الشِعر مادّته الموسيقى ؟ لربّما. وسلطنة النغم قاعدة لا تُخطئ. والعلم يعلّم أنّ الإتّحاد بالكون لا يتمّ إلّا بالتموّج. ونحن نعرف أنّ أوثق ما يرتبط بالنَفس أشياء موسيقيّة ومظهرها الطبعيّ الغناء. وقد ثَبَتَ أنّه من الرّملة إلى الكوكب، من أدقّ الخلايا إلى أبعد جنبات الكون، إنّما يقوم ارتجاف دائم، تموّجات دائمة. وباكراً، منذ القرن الخامسَ عشرَ، قال العلاّمة ده كوزا : « ان النَفس لحن ».

أتكون، يا تُرى، مادّة الشّعر تموّجاً ؟ أتكون موسيقى ؟

وبعدُ، لعلّي لا أبعد عن الحقيقة كثيراً إن قلت : الشّعر حالة من لاوعي فوق الوصف لا تُشرح، جوهرها أشبه بموسيقى، بها يتّحد الشاعر حميماً مع الأزليّ من حقائق هذا الكون المَهيب.

* * *

الحالة الشّعريّة، كيف أنقلها منّي إلى المتذوّق ؟

قلت أنقل ولم أقل أعبّر أو أترجم أو أصوّر أو أمثّل أو أُدني أو أعكِس أو أنبئ أو أنشر، إذ الشيء لا يمكن غيرَه أن يكونه.

من التّحديد أُذكّر بأمرَين : الشّعر من لاوعي، وجوهرُهُ أشبهُ بموسيقى. نقل الشِعر إذن يقتضيني تعطيلَ الوعي في القارئ وأن أخلقَ فيه جوهراً أشبه بالموسيقى وأخلقه على شاكلته بالذّات.

أوّلاً : كيف أعطّل الوعي ؟

أقول : غداً، لمَحض ما أن يواجه القارئ قصيدتي، سيكونُ قد هيّأ لها وعيَه، عاد بأجمعه وعياً بوعي : عقلاً، تخيُّلاً، حِسًّا. سيكون على تمام أُهْبة إذن لأن يأخذ من الحالة الشِعريّة ما يقع على السطحيّ من قوى النَفس، لأن يأخذ منها مظهرها الأحطّ، نثريّتها بالذّات، لأن يحوّل لاوعيَها إلى وعي، لأن يخرجها عن طبيعتها، لأن يقتلها. إذن فلأُعطّلْ فيه الوعي. كيف ؟ بأن أشغّل منه الوعيَ، ظاهرةَ الفضوليّةِ فيه. الوعي يطلب أبداً أن ينشَط، أن يعي ؟ فلأعطِه حقلاً يُعمل فيه نشاطه، ولكن حقلاً مُركَّباً

(ويقول البرّانيون : صعباً) بحيث يجهد، ويجهد حتّى يتعب، وأخيراً يكِلّ.

هذا الحقل عرفه النظريّون المحدثون باسم « الإيحاء ». أمّا بحثهم الإيحاء فلم يخلُ من سذاجة. قالوا معَ ملَرمه : الأشياء قِيلَت ألف مرّة : يكفي أن نومئ إليها إيماء، نتمتم بعض الكلمات، ليروح السامع يكتشفها من ذاته ونكون لم نضيّع عليه لذّة الاكتشاف. وقالوا مع غير واحد : إن القارئ إذ يكتشف يحسّ أنّه شارك الشاعر في خلق الحالة الشعريّة، يحسّ أنه هو أيضاً مبدع.

على أنّ الإيحاء، حقلنا المركّب العجيب، ينفضح سرّه إن هو دُرس في مظهره « التعدّدية ».

« التعدّدية »، في الموسيقى مثلاً، (وهي ذروة أنواع الموسيقى) هي أن تضرِب في الوقت الواحد أصواتاً مختلفة. فإذا الوعي، ولا صوتَ واحداً يرتاح إليه، أي يعيه، يحاول أن يقبِض على الأصوات المتعدّدة مجتمعة، فيجهد نفسه، لكنّه (وهو الضعيف الضعيف ولسطحيّته ذو خاصّة تتطلّب الواضح والمفرد) عبثاً يجهد، فإذا به يتعب ولا يلبث أن يقع دون المَحجّة، وهكذا يترك الأصوات المتعدّدة

تخاطب اللاوعي، وهي التي إنّما وُجدت له ولها وُجد.

ألجأُ إلى الإيحاء؟ أو، بلغة الموسيقى، إلى « التّعدّدية » ؟ أوَليس إلى هنا مرَدّ أقوال برغسون : « غرض الفنّ أن ينوّم القوى العاملة، أو بالأحرى الصامدة، من شخصيّتنا، ويذهب بنا هكذا إلى حالة انقياد تامّ... » ؟

هو العمل السَلبيّ لـ « التعدّديّة ». أمّا عملها الإيجابيّ فلعلّي أتبيّنه عندما أُفاجئني أخلق جوهر الحالة الشِعريّة.

ثانياً : كيف أخلق في القارئ جوهر الحالة الشعريّة وأخلقه على شاكلته بالذات ؟

الألفاظ، عناصر الشعر المادّيّة، ليست علاماتٍ محضَ اصطلاحيّة. اللغة لم يوجدها فرد ولا مجلس أفراد، فيصطلحها اصطلاحاً. اللغة بنت التّفاهم البدائيّ. هذا كان بين الناس، شأنه اليوم بين البكم غير الصُمّ، أصواتاً، لأنّها جوهر المعبَّر عنه. فإذا يكون طور الكلام تعود اللفظةُ مجموعةَ أصوات أكثرَ تساوياً في الجوهر وشكلِ الجوهر مع الشَيء المقصودِ إظهارُه.

هو سِرّ تكوين اللغة لا أزْيَد. وهو المبدأ الذي ينبغي أن يظلّ عليه الكلام.

ولكن إذا تكون الكتابة، وتُغرق اللغة في الاصطلاح، (وهو إنّما يستدعي التدخّل العقليّ، الذَاكرة على الأخصّ) وتخرج الألفاظ عن هذا التّساوي في الجوهر وشكل الجوهر مع المقصود إظهارُه، تعود مَهمّة الفنّ أن ينتقي ويرتّب بحيث يوجد تركيباً كلاميًّا، وقُل موسيقيًّا، فيه من الأصوات، تَمازجها أو التَنادي، جَهيرِها أو الخَفيت، مقتضَبِها أو المنبسط، إلى لعبٍ ولَفٍّ، ممّا يؤلّف صِيَغاً صوتيّة تعيد بين الكلام والمقصود إظهاره رابطةً فيزيولوجيّة سبق للتدخّل العقلي أن فصَمها. وبقدْر ما يُوفّق الفّن إلى ذلك تكون درجةُ الخُلوص في الشّعر.

تَساوي الصّيغ الكلاميّة والحالةَ الشعريّة جوهراً يقتضي أن تكون الصِّيغُ الكلاميّة من تموّجات هي نفسها مكوّنة الحالة الشعريّة. والتّساوي شكلَ جوهر يقضي أن تكون الصّيغ الكلاميّة من تموّجات هي نفسها تكوّن الحالة الشِعريّة. والتساوي شكلَ جوهر يقضي بأنّه إن كانت التموّجات التي تكوّن الحالة الشِعريّة على شكل لولبيّ مثلاً أو خط مستقيم او ما إليه وجب أن تكون كذلك التموّجاتُ التي تتألّف منها الصِيَغ الكلاميّة.

يطيب لي أحياناً أن أتناول الأصل والتّرجمة لقصيدة

ذاتٍ ترجمة عبقريّة. (أقول الترجمة غير ناسٍ ما يزعمون من أنّ الشعر لا يترجم. وإنّه لكذلك إن كان المقصود أن تحصُل على مساواة في المعاني بين أصل وترجمة. ولكن الشّعر أكيداً يترجم إن كان المقصود مساواةَ الحالة الشِعريّة يُطلعها الأصل بالحالة نفسها تُطلعها التّرجمة). وأختبر وقْعَ الصّيغتين على مَن يجهل لُغتَيِ الأصل والترجمة فألحظه يستشعر، دوماً على وجه التَقريب، الحالة الواحدة : ففي اللغتين يَسمع الحلْق يعمل إن كانت الحالة الشّعريّة متمظهرة الجوهر بأصوات مختنقة، وفي اللغتين يتحسّس الأبيات عصبيّة أو متطايرة إن كانت الحالة متجليّةَ الجوهر بأنفاس مقتضبةٍ أو وثّابة. فأُوقن أنّ أبيات التّرجمة لم تتمكن من نقل الحالة الشعريّة بالذات إلاّ بعد أن ساوت أبيات الأصل جوهراً وشكلَ جوهر، وأبياتُ التّرجمة يستحيل أن تكون قد نقلت حالة الشاعر لو لم تساوِها جوهراً وشكلَ جوهر. وبديهي أنّ شيئاً يساويه أحدُ شيئين متساويين هو مساوٍ ثانيهما.

وبعدُ فالقصيدة، أداةُ نقل الحالة الشعريّة، أحدّها هكذا : مأثورة كلاميّة توصّلت بتجاربَ موصولة ــ وقل بِلَقيّات ــ إلى فِلَذ، إلى أبيات، إلى مجموع إيحائيّ يعطّل بتعدّدية

الأصوات وعيَ المتذوّق ويتكوّن في لاوعيه بأكثرَ ما يمكن من مساواة لحالة الشّاعر جوهراً وشكلَ جوهر.

* * *

هذا عن الشّعر كفنّ، أي كواحد من مظاهر الجمال. أمّا الشِعر في أغراضه والتفصيل فيها فمسألة أخرى. ولربّما أمكنت إزاحة طرف من ستارها بالقول : إنّ الجمال الذي يخلعه الشعر، سواءٌ على الشاعر أو على المتذوّق، إنّما قِوامه هدوءٌ خالص لا تتلاطم فيه فِكَر وصور وعواطف، هدوء يجعل النّفس، ولا شيء يفّجأها أو يعكّر صفاءها، منطويةً على ذاتها، أعماقُها على أعماقها، حتى لَتغدو أكثر تآلفاً مع حقائق الكون، بل تغدو وحقائقَ الكون شيئاً واحداً، فإذا هي فوق هذا العالم بآلامه ونقائصه، لا تصطدم عمياءَ بأيِّ نظام تجهل.

الجدلية

ـ ربِّ ربٌّ ، أما كان يمكن..؟

ـ قل : لو تنفلتون من الأوهام

التي نسجْتم، فتروا ان للجمال

منطقاً معصوما.

نغمةٌ آذنتْ وصحوٌ أضاءَ
في محيّاً
هَيْهانَ من نَعماءَ.

تتراءى فيه الأمانيُّ
زرقاءَ،
وتَفنى
عِبْرَ الرُؤى
بيضاءَ.

نزهةٌ للعيون
تَغوى به
وَهْماً
وتَنْهَدّ دونه إعياءَ.

وتعرّى خدّانِ عن شفقٍ رَحْبٍ بَهِيّ السّنى، نَقِيّ التَّناجيْ،

في مدى سجعة اليمامِ
تتاليه المُغالي،
وفي مدى الابتهاج.

أيُّ بوحٍ
من عاشقٍ
لم يرجّعه،
وأيّ ارتعاشةٍ واختلاجِ !

مِثلُ وَحْيٍ مُجَنّحٍ
مَرّغَ الريشَ
غَنُوجاً،
في ناظرينِ،
حَيِيّاً،

ساكباً فيهما من الليلة القمراءِ
أو تاركاً
من الريشِ
شَيّا.

لا رُكوناً إلى سكونٍ، ولا حُلْماً بحُبٍّ، ولا انتهاكاً لِسرٍّ،

غيرُ ظلٍّ
من لفتةٍ
حُلوةِ الإفضاء
رفّت عليهما، بعضَ دَهرِ.

واستلانَ الضِّياءُ
ضِحكةَ ثَغرٍ،
غافياً، مِلْئَها، عليلَ الأماني،

شائعاً حولَه، من الوهْم،

ألوانٌ
خِفافٌ
يَغِبنَ في ألوانِ.

سَفَحَ اللهُ، غِبَّ نشوتهِ، قارورةَ الحُسن في صحاري البرِيّه !

فإذا في الرّبى
اعتراشُ الدَوالي
ووراءَ الرِمال
رَجْعُ الأغاني،

وإذا للحياة أُمنيّةُ الحُبّ،
وللأرض

مريمُ المَجدليه.

*

رأت النُورَ، عَهْدَ لا يتعبُ النورُ،
وعَهْدَ الدُنيا له، والعصرُ،

وتلوّتْ
في مهدها،
فكرةً بيضاءَ
مخضوبةً بوهج ولَذّه،

تملأُ الجوّ
من أصابعها العشْرِ،
فملهى الضُحى
أصابعُ عَشْرُ !

طفلةٌ واللمى يَهُمّ بأنْ يُعطاكَ
والقلبُ
فِلذةٌ إثْرَ فِلذهْ..

غَدُها
كان قَبْلَها ،
لا انطوى خصْرٌ
بأشهى
ولا تلألأ ثَغْرُ !

رأت المَجدليّةُ الضَوءَ
أَسيانَ،
فأجْرته
في الرُّبى
أنهارا،

والمُروجَ الفتيانَ،
ذَبلَى كهولاً،
فجنتْها أَعِزّةً أزرارا.

قَطَفَتْ بُحّةَ الحبيبِ
نشيداً،
واستردّتْ آهاتِها
أشعارا.

فإذا الحُبُّ،
ذِلّةُ الناس في الظُلمةِ،
يَنْدَى
في مَفرِقِ الصُبْحِ،
غارا.

هَدّمت كلَّ وردَةٍ منتقاةٍ
وابتنتْ
عرشَها
على الأنقاضِ،

تَخِذتْها قواعداً
وتخطّتْ،
ليس تَرضى بما بِهِ الظَنُّ راضِ !

يَطْهُرُ الطَّرْفُ، إن رآها على نَيّرُ عِهْرِ مُخضَّبٍ ببياضِ.

*

عرف الناسُ نشوةَ الحُبِّ في نديان جسمٍ مُخضوضِرِ
اللذّاتِ.
مَرّغوا في أريجِهِ الجبهةَ البيضاء،
واستوقفوا الهنيهَةَ
بِكرا،

واستلذّوا
نبضَ الأسرّةِ
وانهدّوا
هُيامى
على جنى الطيّباتِ،

عانقوا الحُلْمَ
إضحِياناً
تعرّى
عن رَبيعٍ مُوهٍ، وأُفْقٍ أمَرّا،

وتغنَّوْا
مع الجَمال،
وهزّوا
لذّةَ الوصل في سرير الحياةِ.

من صِبا المَجدليّة اقتصفُوا العُودَ،
ومن رَنّ كأسها، النّغماتِ !

*

خَفقَ اسمٌ
في جَوّ أُورَشَليمٍ
خفْقَةَ العِطر في جِواء الرّبيعِ.

وتغنّى الحادي بحسناءَ، حُلْمِ الأرض مُدّت له، ففرّ، يداها.

سُجَّدٌ دونها الأعِزّةُ من روما،
ومن رحبِ فتحها،
ومُناها.

دُميةٌ
أشرقتْ
على سُرُرِ الرِفعةِ،
بين العُبدان، بين الشُّموعِ.

سَعَفُ الغار دونها في انكسارٍ،
وسَنى التّاجِ
مُطرِق
في ركوعِ

قدّستها العروشُ
قدّسها الناسُ،
وداست على قلوب الجميعِ.

*

كان، في ذلك الزمان،
على تلٍّ صغيرٍ
مُخضوضِرِ الجَنَبات،
مُبدعٌ
قالت الجديدَ
يَداهُ،

ينثرُ الياسمينَ
في الكلماتِ،
قام بين الأمواج،
من نَظَرِ الناس
ومن مِسمعَ الذُّرى الواجماتِ.

يُفعِمُ النَّبرةَ التفاتاً
إلى فوقُ،
ويُبقي
على البقاء
صداهُ.

تمتماتٌ
تقولُ آناً : يسوعُ،
هينماتٌ
آنا تِضجّ : اللهُ.

*

سمعتْ زهرةُ اللذائذِ أنّ الكونَ بالناشقِ الأبيّ تمخّضْ،

بفتى الطُهر، يَنشُد الوردَ
صعباً،
طيّبَ الفَوْحِ،
طيّبَ البَوحِ،
أبيضْ.

واستزادت، والعين تبسِمُ من هُزءٍ ودَلُّ القَوام في إغراقٍ،

وانثنتْ
جبهةً خَجولاً،
ولحظاً
تائهاً في سرائرِ الآفاقِ.

أهْوَ همُّ الهُمومِ
جارَ
على خدّين،
حتّى لَفي الهدوء اصطدامُ،

أم جمالُ الوجود
جُمِّع في ثغرٍ
وألوى،
فكَلُّ حُسنٍ حُطامُ ؟!

رَعشاتٌ حَرّتْ أساريرَها البِيضَ
فهاجتْ في أُفقها الآمالا،

وامّحت
ثم آذنت بمَعادٍ،
فكأنْ مَزّق الخيالُ خيالا.

.. أيُّ جانٍ،
قالتْ،
تمنّعَ مُزوّراً عن الرَوض، يوم هَلَّ جَناهُ ؟

أيَّ عينٍ حرّى الشَّكاةِ استطابتْ
هُدْبَ عينٍ
جفّتْ بها الأمواهُ ؟

أيُّ ثغرٍ
حَرّانَ
مات على ثغرٍ
رطيبٍ ما أشعلته الشِّفاهُ ؟!

وَوَهتْ زهرةُ اللّذائذِ في سِرٍّ يسوعٍ
تقول :
يومَ أراهُ..

عند شاطي الأردُنّ،
بين الخَميلات،
تَلاقى
يسوعُ والمَجدليّهْ.

أبصرتْهُ
يُذرذرُ الشَّعرَ
فجراً
ويَرُدّ الأبرادَ
وَهْجَ عَشِيّهْ.

تَتّكي رحمةُ العُلى، بين جفنيه، اتّكاءَ السّنى بحِضن البرّيّهْ،

ويلوح السّلامُ

في شفتيهِ

بسمةً

حلوةً

ونَبْراً

بَليلا.

يلتوي

نَقلةَ الطِّفالى

نَحيلاً،

ينثني

مِشيةَ الملوك

جليلا.

الرّياحينُ مِنْ يديه تَهاوَتْ

واغتدتْ

حولَ خَطوِهِ

إكليلا،

سَربلتهُ أطيابُها، سَربلتْه سحبُ النور، سربلته الهَيُولى.

وراَها،
يهدّمُ الحُبُّ جفنَيها، وَيَعتلّ من شَكاةٍ لَماها،

يُخضِلُ الأرضَ
مُتّكا قدمَيها، ويندّي الذّبولَ
فَيْءُ خُطاها.

خَلَعَتْ طَرْفَها على الرَوضةِ الرّيّا،
عليلاً،
فأوجعتْ
رَيّاها.

لا عليها ولا لَها
غيرُ سِتْرِ الغيب،
تَذْريه
ثُمَّ تَطوي،
يداها.

وأبانتْ
عمّا يُظَنّ كلاماً،
فتأنّى السُكونُ
والآنُ
تاها.

فجّرت في الفضاء سَلْسلة الحُلمِ، وأرختْ على الأديم الصَفاءَ،

مِن أساريرِها اكتستْ عَطَفاتُ النَّهر
زَهواً،
وَميسَةُ البان
جاها.

فالأفانين في الضِفافِ
حِسانٌ
خالعاتٌ على القُدود الهناءَ.

سَفَحتْ من هُدوء وَجنتها الصَحوَ.
ومن عُمق شعرها
النَّعماءَ،

واستثارتْ
مِنْ رَفّ أردانها.
جوّاً
ومن غُنج قَدّها،
أجواءَ.

تَنْقُلُ الرِّجلَ في التّراب
جَناحاً،
تَطَأُ الأرضَ
كالجَناح،
فضاءَ.

قطعةٌ في سرائرِ الغيب صِيغَتْ
عادت الأرضُ تحتويها
سماءَ.

*

هامَتِ الآنَ مريمٌ ويَسوعٌ،
في ظلالِ الأفنان
والأورادِ.

يشربان المساءَ
من جَعدةِ الأُردُنّ، من هبّةِ النَّسيمِ النَادي.

فَتّقتْ
بسمةً،
وأشْرقَ
لحظاً،
والدُّجى لم يَفُضّ بعدُ وُجوهَهْ،

وتهادتْ
إليهِ،
فالأرضُ
في الرِّعشة
تلقى الجمالَ
قُرْبَ الأُلوهَهْ

سَلْسَلَ البدرُ نورهُ
مُخمليًّا
بين خُضر الخمائلِ الحالماتِ،

وَتَقَضّى الظلامُ،
إلّا هَزِيعاً يتهادى كواكباً راقصاتِ،

هَينماتُ النّسيمِ، رَقرقةُ الأضواء
مَسفُوحةٌ
على الكائناتِ.

في صَفاءِ السّماء والأرض
طَرْفٌ
باسطُ الجَفْنِ للرُؤى العُلَويّهْ،

في وُجومِ الشماء والأرض،
إرهافٌ
لنجوى المسيح
والمَجدليّهْ :

« يا ربيبَ الخيال،
يا أُفُقَ الفكْرِ،
فَداكَ البياضُ من حَرمونِ !

وحَنَتْ فوقَكَ الضُّلوعُ العذارى
وابتسامُ اللّمى
ونُورُ العيونِ !

يا أساريرَ مُنيةٍ عَزّ لُقياها،
فأطلعتَها
ندىً
وسناءَ

ضاحكتكَ الأنسامُ في هَدأةِ الفجْرِ
وَبثّتكَ
رُوحَها البيضاءَ !

يا اندفاعَ الأحلام
في بال عذراءَ
ويا بسمَةً
على ثغر أُمٍّ،

عانقتكَ الأفكارُ
في غفوة الصُّبح
وروّتْكَ بين لَثم ٍ وضمٍّ ! »

باحتِ المَجدليّةُ الآن أم صَلّتْ ؟
وغابتْ،
مجنونةً،
في الخيالِ !؟

حدّثتْ مُبدعَ الجَمالِ، إلهَ الحبِّ،
بالحبّ، طيّباً،
والجَمالِ !

ودَعتهُ
إلى التّمتّع بالأيّامِ
قبل الخريفِ، قبل الزّوالِ !

علّلتهُ
بأن تُهزْهِزَهُ في الحِضن،
آناً،
ومرّةً في الجفونِ،

إن تُرنّمْ
يُعانقِ السِرّ
في الصَّوت،
ويشَربْ — إن تَغْفُ —
رَجْعَ السُكونِ،

وإذا جاذبتْهُ حُلماً بِبَدْلِ الأرض أُخرى
قالت :
« سَبَقتُ ظنوني ! »

صارحتهُ بالحبِّ،
والكونُ ساهٍ
لا يَعي
والزّمانُ
لا يَتوالى،

فإذا الرَدّ من يسوعَ
جفونٌ
تتسامى
وجَبهةٌ
تَتعالى.

ـــ لا ! حَنانَيك، لا تَقُلْ : « لا »
ففي ذُلّيَ جُوعٌ إليكَ دُمِرّ حالا.

لا
وفي اللاءِ منكَ ما يجعلُ الدهرَ
أراجيفَ،
والوجودَ
سُؤالا !

وارتمت زهرةُ اللذائذِ
هَيمى
عندَ رجلَيْ يسوعَ
حَرّى المآلِ

تسألُ الحُبّ،
إنْ غراماً
وإنْ قُدْساً،
وكفّانِ
مُدّتا لِنَوالِ،

تلثِمُ التُربَ،
توبةً،
ويسوعٌ
يتوارى
في جُهْمةِ الأدغالِ.

لَملمتْ
لحظَها
فلم تلقَ إلّا
نَثْرَ آمالها على الآمالِ،

وامّحتْ،
ذِلّةَ الحياءِ،
فلم تَنعَم
بمرآه
والدْموعُ لآلي !

*

ودموعُ المسيحِ
لم تَسْقِ مِن خدّيه
حتّى غدت
جَناحَ ملاكٍ،

هامَ في الأرض
إثرَ مريَم،
يحنو
من أضاليلها
على أشواكٍ.

فإذا يلتقي بِها،
ذاتَ يوم،
تَسحبُ الذُلَّ
وَسْطَ غُلْفِ الجِباهِ،

وشفاهٌ تصيح :
« وَيْها ! ألا ارجُمْها »،
وحكمٌ يَهُمّ
عِبْرَ الشِّفاهِ،

يَرتمي

ذلك الجناحُ

عليها

فيَراها الإلهُ

ظِلَّ إلهِ !

قَدمُوس

الطبعة الأولى ١٩٤٤
الطبعة الرابعة ١٩٩١

قَدْمُوسْ

مَأْسَاة شِعْرِيَّة من ثلاثة فصول

« سوف نبقى، يشاء أم لا يشاء الغير

فاصمد، لبنان، ما بك وهنُ

سوف نبقى، لا بد في الأرض من حق

وما من حق ولم نبقَ نحن ».

قدموس

لما اختطف زوش، كبير الآلهة،
أورُبّ، بنت ملك صيدون، لحق
بهما قدموس إلى بلاد الأغارقة
يسترد أخته.

وفي البيوسى قتل تنيناً كان قد
فتك باثنين من رجاله، وبأمر إلهة
الحكمة بذر أضراسه في الأرض،
فأنبتت رجالا شاكي السلاح اقتتلوا
إلا خمسة أصبحوا فيما بعد نبلاء
ثيبا، أولى مدن مئة وإحدى سوف
يبنيها قدموس.

وأوربّ هي التي أعطت الغرب
اسمها كما أعطاه قدموس حروف
الهجاء، وهكذا كانا الواحدةُ رسالةَ
الحُبّ والآخرُ رسالةَ المعرفة.

أسطورة إغريقية

الأشخاص

قَدموس

ابن الملك أغنار

أُورُبّ

أُخت قدموس وعروسة زوش

مِرى

مرضع قَدموس وأورب

الأَعمى

عرّاف إغريقي

جوقات

من إلهات، وبحارة صيادنة، ومقاتلة اغارقة.

صخر موحش الكهوف من ساحل البيوسّى، في بلاد الإغريق، منتصف الألف الثاني ق.م.

الفصل الأول

المشهد الأول

أورُبّ، مِرى

أورب

حَدُّكِ الحدّ ! يا سماءُ، تجهّمتِ

تُعِلّيــن، فارأفــي بالجــراحِ !

لا تَحُرّي، رُحمَاكِ ، هُدْنةَ ليلٍ

لا يحطّ التفاتةً في صباحِ.

تُجهش باكية

مرى

بضلوعي بكيتِ، أورُبُّ فاّصحَي.

أورب

آه! لو عِفتِني لِوَحدي وآهي!

مرى

لا !

أورب

غضبى بسلطان

تقولين ؟!

مرى

معتذرة

أنتِ بنتُ أغنّـار،
مليكي ؛ وزوجُ زوشَ، إلٰهي.
واذا أدّعي، فدعـوى لِبـانٍ
رضعتهُ من مهجتي شفتاكِ.

أورب

متأثرة معتذرة

عفوَ كفيّكِ ، يا مِرى، أنتِ، في الغُربةِ،
وجهٌ من عهد لبنانَ، حاكِ.
أنا، يومَ اعتلقتُ زوشَ، تخلّيتُ
عن الكَرّ فوق شطآنِ صُورِ،
في عذارى الأَتراب، يخَضلّ خصري،
دون شتّى الخصور، بالبِرفيرِ ؛

وتخليتُ — أين ضمّةُ أمّي ! —
عن هوًى ما سواه لَمعُ سَرابِ ؛
عن أبٍ، سيّدِ الحواضر ؛ عن زَند
شقيقي، قدموسَ، زَينِ الشبابِ ؛
عن قُرًى من زمرّدٍ عالِقاتٍ
في جِوار الغَمام، زُرقِ الضياءِ،
يَتَخطّينَ مسرحَ الشمس، يَرْكُزْن
بلادي على حدود السماءِ.
كلُّ ما كان عِفتُه ! كلُّ ما كان !
وآثرتُ ضمّةً من حبيبٍ،
واذّكاراً كالطَّلّ يُنعشُ نفسي،
كلّما طوّقت يداكِ شحوبي.

تفيء الى صدر مرى

أنتِ حُقّ أردتُه يحتوي عِطْرَ
بلادي جميعَه.

مرى

أنا أدرى،

وتتذكر يوم اختطفت وإياها من لبنان

ملءُ عينيّ عنكِ لوحةُ حبّ،
بلبلٌ جيّدٌ على البال كَرّا :
مَركبٌ مُفلتٌ من البحر، تيّاهٌ،
يشُقّ الشّربينَ والسِنديانا،
تَخِذَ الشكلَ عن فم الورد في البُرْعم،
والدَّفْقَ عن صَبا لُبنانا،
وتحلّى بالفلّ، والورد والآس،
يغنّي للريح، يَغوَى ويُومي،
في هُوَيْناه مَسْحُ ربٍّ على الأرض
وفي الخَيزَلى انفراطُ نجومِ.
ما لها تلّةٌ تقول لأُخرى :
« أنا منه في موعدِ المشتاقِ،
حلَمتْ ضمّتي به، منذ كان الحبّ
في تُربتي، وفي أعراقي. »
وهْو ساهٍ، كأنّما الصخرُ صخرٌ
لا دعت هضبةٌ، ولا اهتزّ قاعُ،
جَدّ مِجذافُهُ على سُندس السفح،
وشالَ الصاري، وطاع الشِراعُ.
وتقولين : « ها ترابُ بلادي
هَشَّ للأخشُب المَواتِ، ورَقّا ؛

إبعثوني غداً رسالةَ حُبٍّ
من بلادي تفجّر الأرضَ رِفقا. »
فإذا الطيرُ في الرُبيِّ تتالتْ
وتغنَّت، والغصنُ مادَ وشوّقْ ؛
وسجا زورَقُ الإله، ومُدّت
منه كفّانِ تقطِفانكِ زَنْبَق.
لَمْ تشائي إلاّيَ خِدْنَةَ عُرسٍ،
لا ولم تأنسي إلى غيرِ بؤسي.
أنا لم أنسَ.

أوربّ

أيُّ أُمٍّ حنونٍ
أنتِ لي! فانتحِي معي ليلَ نفسي.

مرى

أوَتبْكين ؟

أورب

والنِزالُ، مِرى ؟ والسيف
أنّى يُصِبْ وجيعاً، يُصبْني ؟
يا، هُويناهُ ! كان حُسناً فأذوى
وتملّى البُكاءَ والهمَّ، حُسني

ضِقتُ ! لولا مُزَجّجٌ فوق جفني
لم يُجيّشْ أخي على الإغريقِ ؛
لم أكن فيهمِ عروسةَ زوشٍ؛
كنت حرباً !

مِري

غَضْبَى

بل جُذوَةً من شروقٍ :

جاءَ قَدموسُ بالكتابة، بالعلم
إليهم، إلى الأَواتي العصورِ ؛
وغداً يعرفون أنّا على السُفْن،
حمَلنا الهُدى إلى المعمورِ.
ما تقولين لو تُسمّى بلادُ الغرب
أوربَّ ؟!

أوربّ

مستغربة ما سوف يغدو واقعاً

لو تُسمّى باسمي !؟

مِري

واثقة كأنما يُمرّ أمامها لوحةُ التاريخ جميعاً

أعجيبٌ ؟! ونحن أوّلُ من خَطَّ
بأرض كَفّاً، وطرفاً بنجمٍ !

وبلفتة الى المْغرب خاشعة، تسمّيه بٱسم أوربّ

كُنْ، يُها الصُقْع، بٱسم أوربّ، أرضَ اليُمن

أرض النُّهى، وأرض الجَمالِ.

باركتكَ اليَدُ الأهَلّت على القَفْر

عَطاءً، فالعَطْلُ من بعدُ حالِ.

ألسَّخَتْ، أوّلَ الزمان، على تُربة

أهلي بالغَيِّثِ المِحراثِ،

آلةِ الخير يا لَها تتحدّى

دُنْيواتٍ ضَنَّتْ برِزق بُغاثِ.

علّمت، ويحَها، أنِ الفتحُ كلَّ الفتح

بالعُمق، لا بعَرض وطُولِ،

فإذا تَطرُق السواعدُ بابَ الأرض،

تَغوَى بأنهُرٍ وسهولِ.

والأذلّت — يا نُبْلَها، يدَ طَلّاع

ويا بُعْدَها بصائرَ غَمْضِ ! —

عُنفوانَ المجهول بالزورق الأوّل

يُلقي أرضاً على حِضْن أرضِ.

والأسلّت روحَ الخُلوص من المحسوس

تحبو العقلَ الوليد شُمولا،

غُربةٌ في العلاء سَلْها : هل الإنسان

باقٍ يغـالبُ المُستحيـلا ؟

فَضْلَةٌ عن خُوانها الأبجديّاتُ،

ومـا بَعْـدَ مستقيـمٍ ودائـرْ،

وتَداعٍ شَجٍ كأنْ قُبَّةٌ مادت

وزهـرٌ مفتّـحٌ في الضمائـرْ !

أورب

هِجْتِني، يا مِرى، فخَدّرْتِ نفساً

حُمّلَتْ، لو دَريتِ، هَمَّ الليالي

فَكّري، فكّري بقدموسَ في إثْري،

مُثيـراً حَفيظَـةَ الأبطـالِ،

يتحدّى، في عُقر دارهمِ، الإغريقَ

يأبـى إلّا مَرَدّيَ عَنـوَهْ،

يَزرعُ الرّعبَ في البُيوسى، فيَبلو

بلـوةً موطنـي الجديـدَ فبلـوهْ،

ضَجّ منه الإغريق، ضجّ أُولو الأُولمب،

حِقْداً واستصرخـوا التِّنّينـا،

يُوغِرُ البحرَ، فالأَواذيُّ في البحر

جبالٌ تكُبُّ رَوعاً وهُونـا،

مَزّقت من سَفينٍ قدموس، من أبطاله

مطمعـــاً، وذلّت عِنـــدَهْ،

فاذا زَنـــدُه أشدّ وأمضى،

يومَ يلقى صدراً لِصدرٍ نِدَّهْ.

لا يُرى الفجرُ أو يخرَّ قتيلاً

واحدٌ منهما.

مرى

مستدرجة

ومـــا التِّنيـــنُ !

أفصِحي، والتي وقَتْكِ بعينيها

الأذى، فيمَ سِرُّه مكنـــونُ ؟

مَرّةً، شئتِ أن تبوحي، فغاضت

شفةٌ منك خلف تَصخاب آهِ !

أإلٰهاً تُراهُ ؟ أم هو وحش ؟

أم هو الغيبُ أثقلته الدّواهي ؟!

أورب

متهيّبة

أتُراني أدري ؟

مرى

وما قال زوشٌ ؟

أورب

مسترسلة كأنما هي تهذي

قال عنه : « أمَرُّ من إنسانِ،

مغلقٌ، إن يَبِنْ فأظفارَ لَيثٍ

وجناحَي نَسرٍ على أُفعوانِ،

وحشُ وحشِ الوجود، سِرُّ الغباوات

إذا قُدّرتْ لَهُنّ السنينُ،

قَولُ من قال : « إنَّما الحقّ للقوَّة »،

هل كان غيرَهُ التِنّينُ !

ينفث النارَ من حديدِ لسانٍ،

ويفُتّ الصخرَ الأصمّ بنابِهْ،

إنْ يُنفّضْ جناحَهُ يُنتنِ الوردُ،

ويسودَّ زنبقٌ في شبابِهْ ؛

او يُدِرْ طرفَه يَصُبَّ هجيراً

في عليل الصَبَا ويجترَّ نارا ؛

بات أعمى عن الخليقة يلتذُّ،

إنِ التذّ، جيفةً ودَمارا. »

ذاك قِرنُ القدموس عند بزوغ الفجر.

كأنمّا توقظ أورب

أوربُّ، ما لصوتكِ هُدّا ؟

فيمَ تبكين ؟ فيمَ تخشَين تنّين البُوسى

يلقــــى الغريــــمَ الأشدّا ؟

أنا أدرى المَلا بغضبة قدموس،

وجسمٍ من صخر لبنان قِدّهْ،

طال ما استشرفتّه، في الأرز، عيني،

يافعاً تفْجر الفتــوّةُ زَنْــدَهْ.

أجفل الليثُ منه، فانتهر الليثَ

شجاعــــاً، وردّه مستـــــذَلّا،

ضربةٌ منه لا تخيب، فإن ينقضّ

يبـــــطشْ، وإن يشأْ يتسلّا.

صدرُه، عارياً، أحنّ الى الكَرّ،

وكفّــاه، عُزلَيَيــنِ، أمـــرُّ.

يا له، حين يطرح الخنجرَ الجهْمَ،

ويجـري، فالجوّ أغبـرُ، حَرُّ،

يضرِب الليثَ بالجُماع فيسخى

ضربَ شبّعانَ من لِبا ثدْيِ أُمِّهْ،

فـــإذا ضَمّـــهُ استعـــفّ وإلّا
أعمـل الزّنـدَ يحتويـه بضمِّهْ،
سَلّه من إهابه، ورمى الأرضَ
بجُثمانـــه يحـُــرّ نُدوبَـــهْ،
وتلـوّى عليـه يمـزُق شِدقيـه،
فينعى الى السّبـاع نيوبَـــهْ !
يا احتضارَ الأسود ! يا طَربَ السفح
لرؤيـا تهـــوي به وتشيـــلُ !
راح قدموسُ يُنزل الرعبَ في الآجام،
فالأرز هازج، والنخيـــــــلُ ؛
وتخافِينَ أنتِ أنْ يظفَرَ التّنّينُ ؟

أوربّ

بجرح عميق

لو تدركينهـــــــــــا أسرارا !
قَدَرٌ ...

مرى

بِمْ تذرّعَتْ بنتُ صيدون ؟

أورب

بمـا يقـدِرُ الأمـورَ الكبـــارا،

بتٌّ في أمّة تؤلّههمْ كُثراً
ويُودي بهم وبالعرشِ واحدْ،
ألمُجلّي عليهمِ، ذلك الأعمى،
وليُّ المصيرِ، ربُّ الجلامِدْ.
قدرٌ إن يشأْ يغيِّضْ ذرى الأُولمب،
أو يضربِ الحضيضَ بزوشا.
شاء أن يعلقَ الالهُ ابنةَ الأرضِينَ:
سهمٌ إلى السماوات رِيشا،
أوجع الخالدات فاهتَجْنَ مني،
غَيرةَ الحُسنِ ليس بالمعبودِ،
غضِبت تدفع التحدّيَ هيرا،
زوجُ زوشٍ، بوعدها والوعيدِ.
خاف زوشٌ عليّ شرّاً، فخلّى
عند بابي ذيّالِك التنينا،
قال: «مِن صُلبهنّ يحميكِ وحشٌ.
فاطمئنّي، ما لم يُهنْ، او فهونا».

مرى

بهَلَع
هو إن مات ... ؟

أورب

مُتُّ.

مرى

مشيحة عن هذه الخاطرة

لا قلتِ !

أورب

والآن،

أجيبـــي قدرتِهـــا الأقـــدارا ؟!

مرى

لا وأبقى ابنةً لصيدون ؛ هيِّي

أطلِعيه، صيدونُ، شهماً نهارا،

هاتفاً عن يديك : « أنّا، أُولي السعي،

أبينـــاه عاجـــزاً يتحكّـــمْ،

زوّرتْـــه خرافـــةٌ، أفنـــرضى

أن تروح الدُنى رهائنَ أبكمْ ؟! »

كلّ شيءٍ من تلكمُ اليـد.

أورب

حقاً،

يا مرى ؟ يا مرى، ادفعي الموت عنّي،

وادفعي عن أخي.

مرى

فديتُك، ماذا ؟

نقصِد الموت في خُطى المطمئنّ ِ،

ونقولَنَّ : « قدّر القدرُ الأعمى ؟! »

أعِــزٌّ يُشرى بلا أثمــــانِ ؟

أفتْــراشٌ زنـدَي إلـٰـه وذكــرٌ

في كتاب العُلى ـــ وبالٌ هاني !

أورب

مشيحة عن التفكر بالمجد، منصرفة إلى أشجانها

أيَّ عبء حُمِّلتُ يثقل عينيّ،

ويطوي نفسي على الجرح طيّا !

خلتُني نغمةً تَفتّتُ في الكون،

فيغـدو صدراً لهـــا وحِنِيّـــا،

أسكرتْه لبعض صبـح، ولكـن

فاجأ الصبحَ مثلُ ليل ٍ غاضبْ !

فكأنّ الوجود كهفٌ مخـوفٌ

وهْيَ في قعرهِ استغاثةُ هاربْ !

في غدٍ ملتقى شقيقي وحاميّ :
بلادي هَنّا وهَنّا شبابي !
وأنا، في توقّع الخَطْب، غَصٌّ
من سِراجٍ، وحفنةٌ من ضبابِ.
زهرةٌ لم يَطلّها الطلُّ حتّى
قهقهت تنعب الرياحُ وتصخَبْ،
جِيدُها كان فوقُ يلعب في الشمس
فعفِّرهُ، ايّها التربُ، والعبْ !

بتشاؤم

ما لِطَيفِ الشحوب يسحب في الأرض
ويُرخي الضنى على الأرجاء !
غِمْ أسًى، أيها الغروبُ، فها نجمُكَ
في أفقه محابِ مُراءِ.

مرى

بنتُ صيدون، والفؤادُ أليفُ الوهْن ؟!

أورب

مَن ذا أرى، مِرى ! العرّافُ !

مرى

يا لأعمى مُرجّمٍ أبداً بالشرّ.

أورب

هل خفتِهِ ؟

مرى

أنـــا ؟ لا أخـــافُ.

أورب

متعلقة بخيط من الأمل واهٍ

ما تقولين لو نطارحه الأمرَ،

وظنّـــي به رسولَ إلـــهِ ؟

مرى

ترّهاتٌ !

وتهمّ بالذهاب

أورب

مهلاً، وإن يثنِ قدموسَ،

فلا حربَ، بعدُ ...

مرى

حقاً ؟ ... تباهي

وتقولي : « قدموس أقسم ما برّ

بعهد ؛ يرمونـهُ ليس يرمـي »،

وتقومي وتقعدي لعظيمٍ
صدّ صيدونَ مرّةً عن عزمِ !

المشهد الثاني

أوربّ، الاعمى

الاعمى

دون مرمى يدي، على الساحل التيّاه،
وجهٌ جَهْمُ الأسارير، داجِ،
مُترعٌ بالأسى، يُهوّم فيه
جوعُ دنيا تنشقّ من أمواجِ،
فيمَ عيناه تمرحان على الأفق،
وتستطلعان تَخْماً تخمَا ؟
ويدٌ في مجاهل الجوّ تمتدّ
تباهي نجماً، وتقطِف نجما ؟
ما شميمي خبَّ الغريب على الأمس
المدمّى، وموكبُ الغد صاعدْ ؟
شبَحٌ خانقٌ وآخرُ مذعورٌ،
غِنَى بائدٍ على قبرِ بائدْ.

في البيوسى الحرّى، على حرم الإغريق،
أجلافُ أجنبٍ تتراءَى ؛
أين نارُ الأُولمب تنهال لا تُبقي،
وتمحو الحواضرَ الغنّاءَ ؟

أورب

واجفة، وقد أوجست منه تغضّباً على الصيادنة

بَشَراً كنتَ ام إلهاً، ترفّقْ
ببقايا نفسٍ غريبةِ دارِ،
زهرة ملّتِ الجمالَ، وراحتْ
تنتهي في قَوامها المنهارِ،
صارحتها حقيقةٌ حجرٌ ما الجرح،
ما اليأس، ما الحِمام الحبيبُ ؟
لِصباحٍ قيلتْ، فلما وعتْ قولاً
وطارت اليه، كان الغروب !

الأعمى

أُختُ قدموس ؟

أورب

مَن سواها لِهمٍّ ؟

الأعمى

لا تخافي : قرّي على الأخ بالا.

موعـــــدي بٱلتقائـــــه الآن.

أورب

ضارعة إليه أن يكون رفيقاً في إقناع قدموس بالعودة الى صيدون

جَوٌّدْ

من دموعي، يا راحمُ، الأقوالَا !

دُسَّ في الصوت نكْهَةَ العسل الحلو،

وقـلْ رنّـةَ القنـاة الـغضوبِ،

قَسوةً في رضى المحيّا، وليناً

في التحدّي، شأنَ الحبيب الحبيبِ.

وتجنّبْ جوّ القِلى وحرابَ الهُزء،

وٱضرِب على الأحسّ الحنونِ،

خُذه من قلبه العطوف على الضعف،

وخذه من كِبْـره الصيدونـي !

الاعمى

أَزِفَ الموعدُ، ٱرفقي بكِ، أُروبُّ.

أوربّ

تلفّـتْ وٱنظُـر !

الأعمى

شاعراً بعظم القادم من قولها له وهو أعمى : تلفت

أجلْ.

أورب

قـدمـوس !

الأعمى

أُهربي، ويلكِ !

أورب

كأنما تنسلخ عن رؤية قدموس انسلاخاً

ما ليَ اشتقتُه، واشتقت

دنيـا في بُردتيـــنِ تمـــيسُ !

الأعمى

أسرعي !

تخرج أوربّ

يا خُطى سُدًى حتّها اليأس،

فأبقت في صفحة الرمل وسْما،

زبَدُ البحر واقفٌ منه بالمرصاد،

والدهـر منجـلٌ ليس يَعمـــى.

قَدَرٌ فوقنا !

المشهد الثالث

الاعمى، قدموس

قدموس

راداً على « قدر فوقنا »

مقالةُ جُبنٍ !

شاءَ تزلزلٌ دنيا، وشاءَ تبنِ دنيا.

الأعمى

متصنعاً استضعاف قدموس

لا تَجبَّر، قدموس، لاح لك النجْمُ،

تهيّبْ لا تستخفَّ الجَنْيا.

تتحدّاه جِيلَنا ؟ جِيلُنا عاتٍ،

وكالوحش، لو تذكَّرتَ، ضارِ.

قدموس

أنا من أُمّتي رسالةُ نور

تترك الوحشَ غيرَ ذي أظفارِ.

الأعمى

حُدَّ من حدّةٍ، وصيدونُ أنتمْ،

ما تمرّستمُ بقَرعِ الأسِنّهْ.

قدموس

صادقٌ أنتَ. ليست الحرب في صيدون
قصداً مقصّداً أو جِنّــــــهْ،
غير أنّا اذا نُضام نجيء الموت.

الأعمى

عـانِـدْ ...

قدموس

مــا عـزَّ غيرُ المُعــاند

الأعمى

تستخفّ الإغريقَ، لا بأسُكَ البأسُ
ولا سيفُكَ الفِرِنْـدُ الحـاصدْ،
صولةُ الغرب ...

قدموس

خلِّ، ما صولة الغرب ؟

الأعمى

جراحٌ وكبريـــــــاءُ جراحِ ؟

قدموس

ما تكبّرتُ : مَشرِقُ الأرض ساحي،
يوم أُعطي، ومغرب الأرض ساحي

الأعمى

ذَلّ أمساً وحشُ البيوسى رفاقاً لكَ.

قدموس

أمساً. وارتدّ عني كليلا ؛
ما على الشمس، ما على عرشها الثبْتِ،
إذا الأنجم انفرطنَ فُلُولا ؟!

الأعمى

متصنعاً الشفقة

أنتَ في غربة، فرفقاً بصحبٍ
شُرّدٍ، دون موطنٍ في الغَداةِ.

قدموس

نحن صيدونيّون، موطننا الأرضُ،
ونأبى أقلَّ ساحَ الحياةِ.

الأعمى

البيوسى قفرٌ من الرمل جدبٌ،
لا نباتٌ في صخرها، لا مدائنْ.

قدموس

نحن غير الغزاة ، ننزلُ قفراً
فنخلّيه أنهُراً وجنائنْ،

نزرع المُدْنَ، نزرع الفكرَ في الأرض،
ونمضي في الفاتحين مثالاً ؛
وغداً تعرف الحضارةُ في صيدون
أُمًّا، فتنحني إجلالاً !

الأعمى

نافد الصبر
أبداً لا تَنونَ قرصان بحرٍ !

قدموس

بأناة وثقة
تهمةٌ تستخفُّ بالشمس شانا،
حبّذا، والضياء وَقْفٌ على القرصان،
لو عادت الدنى قرصانا !

الأعمى

مسترسلا في الإهانة
مهلَ قدموس، قفرةٌ في البيوسى
فوقَ صيدون رفعةً والحواضرْ،
فوق ما تدّعونَ من قُببٍ شُمّ
وشُهبٍ، ظواهرٍ بظواهرْ ؛
إتّئِدْ.

بثقة مستمرة

نحن للظواهر ؟ نحن الكاتبو
صفحةِ الحقيقة شِعرا.
سُفْنُنا الألف ما تَني هيبةَ الأعصر،
تَفري المجهول بحراً فبحرا،
عمَرتْ جزْرَكم عمائرَ غنّاء،
وفضّت غنَى ثراكم مناجمْ،
في كريتَ النّحاسَ، في قبرص الصبغَ،
وفي رودسَ القلاعَ الجواثمْ.
واشرأبّتْ الى جزيرة تاسو
تتملاه تبْرَها إبريزا،
قل ! مَن الضاربون عبر الألشبون[1]
يُفَلّون في البحار الكنوزا،
يقحمون البُسفور، حيث الصخور السنبليات[2]
جُوّع الغور، فُجّعْ،

---

١) دردنيل الأقدمين.
٢) إسم لصخور مخيفة كان الأقدمون يزعمون أنها تنطبق على الذي يتوغل في البوسفور.

مطبقاتٌ على المغامر، يسحقن،

فَعِزٌّ يُطوى ويُندف مطمَعْ؛

بُسّلٌ يمرحون في بُنط أكسين[1]،

على رحمة الرياح النواهمْ،

لا يشدّون قبل عجرفة القوقاز

سفْناً، ولا يَهُونَ عزائمْ.

قل! مَن النازلون قيثيرةً بعدُ،

وإيطاليا، وجزْراً، وجزرا،

يوقظون الدنيا على ضربة المِعول

مستعمراً، فتنهض سكرى،

سفْنُهم في الجنوب تهمي على النيل

اختراعاً، وفكرة، وصناعَهْ،

فاذا الطرف جاب منفيسَ مصرٍ،

خِلتَ لبنان مستقلاً شراعهْ؟

قل! مَن الفاتحون إفريقيا بِكراً

يَشيدون قمبةً في المغاربْ،

درَّةَ البحر، قيل تصميمُ فتحٍ

باسم قرطاجةٍ على الكون ضاربْ؟!

---

[1] البحر الأسود.

فاخر قدموس بفتح صيدون للبحر المتوسّط، وقد اتمّه في منتصف الألف الثاني، أي في عصر قدموس ؛ ويتكلم الأعمى، لغاية في النفس، وهو عرّاف، على فتح صور الذي سيحصل بعد ذلك العصر.

خلّ، قدموس، خلّ ؛ ما أَمسِ إلّا
ومضُ برق من ضجّة الغد نَزْرُ :
ستحرّون، بعدُ، جمجمةَ الأرض،
فيرقى على يدَينِ الفكرُ.
كلُّ صرحٍ مُمرّدٍ في ربى صيدون،
رملٌ في شطّ صور طريحُ.
تتركون البحار خلف هواكم
لا تكلّون أو يَكلَّ الطموحُ.
آخرُ الأبيض الرحيب مَقيلُ السفْن
من نزهة لكمْ قمراءَ،
لا البليّار شافياتٌ غليلاً،
لا ولا غاليا الجميلةُ داءَ.
صفحةُ الأرض حدُّها الهرقليّات[1]،
وتأبَونه على الأرض حَدّا،

---

١) كان الأقدمون، قبل الصوريّين، يعتقدون أن الأرض تنتهي عند أعمدة هرقول، جبل طارق اليوم.

فتفضّون في المحيط، بعيداً،
دنيواتٍ كأنّما الكونُ مُدّا!
تقحمون الإيبيريا، والقسيتيريد[1]
والجزرْ، عبرَ بحر الشمالِ،
وتغنّون، حول إفريقيا، ملحمةً
من حقيقةٍ وخيالِ.
عَدَنٌ أرضكم، وحرّانُ، والهند
قواديمُ سفنْكم، والصواري؛
وتقولون بعدُ: «صيدونيا الأمّ،
وصيدونيا وراء البحارِ.»
منكم الفارسُ الرِّضى يتحدّى
أمّةً تسترقُّ بَعْدُ العوالمْ،
تزحف القارّتان خلف جبال الألب،
في ركبه، إذا سَلّ صارمْ،
رومةٌ دميةٌ له، وربى إيطاليا
الخضر مَلعبٌ لحصانِهْ،
يكتب الفتحَ في مقدّمة الفتح،
ويُبقي للدهرِ فَضْلَةَ شانِهْ.

---

١) جنوبي غربي إنكلترا.

سِفْرُ حرب ضاحٍ وقولةُ حقٍ :

« لبِنـــانٍ تتلمـــذ القُـــوّادُ،

كلُّ يومٍ محجّلٍ، بعد هنّيبعل،

ومضٌ من سيفـــه جوّادُ. »

وكأنّما يختصر المجد يقذف به بوجه قدموس ليخلص الى النهاية المروّعة

هو، يا ابنَ الصيدونيا، حظُّكمْ يوماً،

تهـزّون صفحةَ الأرض هزّا !

وتُقلّونها، إلى الشمس، في مركب

أرزٍ يهدي إلى الشمس أرزا.

تقحمون المجهولَ من ساحة الفكر،

وتَلهـون بالخفايـا الأحاجـي،

كلّ شيء منكم. وما أنتمُ يوماً ؟

لأنتم ذكرى سنًى في الدياجي !..

مشدِّداً على هول النهاية بعد ذلك العزّ

ما لِعيني ترى لكم قُبّةً شهباءَ،

مخنوقـــةً بخيـــط مُعـــارِ،

أجفلتْ دونها الجبالُ، ويكفيها،

لِتنهـــدَّ، لفتـــةُ الأقـــدارِ.

إشفَ، قدموسُ، من طموحك.

قدموس

ما قلتَ ؟

وأختي ؟ وموعدي بالنزالِ ؟

الاعمى

دون أمنيّتيك هولٌ.

قدموس

بعناد

وإذلالُ

شراعي، أمساً، ورَغْمُ رجالي ؟

الأعمى

المقاديرُ أو طموحُك، يا قدموس،

قدموس

بثقة

لا شيء في طريق الطموحِ.

قلت أنّا سنقحمُ البحرَ والبرّ،

نجرّ الفتوحَ تِلوَ الفتوحِ،

ومن الموطن الصغير، نرود الأرض،
نذري، في كلّ شطٍّ، قُرانا،
نتحدّى الدنيا : شعوباً وأمصاراً،
ونبني — أنَّى نَشأْ — لبنانا ؛
وترجّي منّي، أنا، الجبنةَ الأولى ؟
ترجّي منّي، أنا، الانهزاما ؟
ما يَقولُ الغدُ المحجّلُ عن قدموس،
يومَ الدنيا لنا، أعلاما ؟
يومَ تجني صيدونيا الزرقةَ الرحبة :
مجداً، مهابةً وحضارَهْ،
ويرى الفتحَ فتحَهُ كلُّ قبرٍ
فوق لبنان، والبحارَ بحارَهْ !

البحارة الصيادنة

من الداخل

غرّبي، يا بحارْ،
شُرّداً بالأمل الغضّ.
هٰهنا، في آخر الأرضِ،
كرمةٌ لي، ودارْ !

قدموس

هُمْ رجالي، وبعضُ عزم وراء النحر.

الأعمى

كأنما يستنزل اللعنة

لا طِبتَ، سيفَ صيدوَن، بالا !

مهدّداً منذراً

يطلع الفجرُ في غدٍ بومةً تَنعق !

يخرج

قدموس

بومٌ ؟.. يا ريحُ هُدِّي الجبالا..

البحّارة الصّيادنة

من الداخل

طَيّعٌ مركبي،
يقحم الغَلّابةَ الأمواجْ
ينزع التِّبرَ، يَسُلّ العاجّ
من دم المغربِ !
بالُنا، والشّرَرْ،
هَدْيُنا، واللفتةُ العلياء،

نحن جئنا بهِما الدنيا،
فوقَ جذعَيْ شجرْ !

ستّار

الفصل الثاني

المشهد الأول

أوربّ، الأعمى

الأعمى

مصطنعاً النصيحة

أَقْصِري في النَّحيبِ، لم يبقَ إلّا
أن تَرَيْهِ

أروب

باستغراب وهول

أنا ؟!

الأعمى

نَصحتُ وجيعا.

وإذا السَّهمُ كان آخرَ سهمٍ ...

أورب

مقرّعة

كان، يا قلبِ، مرأةً ودموعا.

الأعمى

شئتِ طعناً على الرُّجولـــة.

أورب

أنّى

لي، إذا شئتُ، أن أسُلّ وأضرِبْ،

وأنـا الظِّفـر قلّمـوه، وقالـوا :

« رُدَّ عن مشرقٍ، وقاتِلْ لِمغربْ ! »

الأعمى

لو رشدتِ اهتززتِ للرأي، أوربُّ.

أورب

وما الرأي؟.. أن أُحَطِّمَ حبّي ؟!

دُمْيةٌ صغتُها من الحُلُم الحلو

ورصّعتُهـــا بأطبـــاق شُهْبٍ،

عانَقتَهْا أُمنيّتي، قبل أن همَّت

بكـونٍ وأيْنعت في خَيـــالٍ،

كانت التوقَ من ذراعي، إذا مُدّتْ،

وكانت، إذا هجستُ، ببالي.

مَن مِنَ البُكّر الصَّبيّاتِ لم تحلم

بزوشٍ، ولم تُعَلّ على اسمِهْ ؟

تتناسى له المزَاليجَ عمداً،

خوفَ إن تَعنفِ المزاليجُ تُدمِهْ،

وإذا صار لي أنا ـــ أنا وحدي ! ـــ

جئتَ ترتدّني إلى قدموسا ؟

ظالمٌ أنت !

الأعمى

لا، عروسَ إلهي،

لستُ أرضاكِ للشّمات عروسا !

تُبصرينَ الربّاتِ، في رَفرف الأولمب،

يهزأن بالغرام الفقيدِ ...

يتمطّين في الأسرّة والخَزّ،

وهزج الحِلى، وكَدْس الورودِ ...

« أيّ أرض، يقُلْنَ، طفلةِ حبٍّ،

جرّأتهُ على حِمى الأربابِ ؟

أُسعِدتْ، سكرةَ الهوى، واستفاقت :

يا تراباً أشواقه للتُّرابِ ! »

قهقهاتٌ كيف الأَسنّةُ في الوقع،

وكيف انتفاضةُ البُنيانِ !

يفعل الهزءُ في الجبال !

أورب

مستضعفة

لمن قلتَ ؟

وهزئي بي هَدّني وبَراني

متذكّرة وطنها الذي هجرته

شَرِّقي، أيها الصَّبا، علّ غُصْناً

عند حصباءَ، ما يزال وفيّا،

هجرته عصفورةٌ كان مَغناها،

وكانت غرامَه العبقريَّا ؛

ما شكا مرّةً سَقاماً، ولا تمتم

في مسمعِ الليالي بِعَتْبِ،

وُجدتْ فاكتفى، وما همّه

للغصنِ كانت أم للحضيض الجَذْبِ !

آيةُ البال حُبُّه ؛ راح يعطي،
لا ارتضى قبضةً، ولا هو آثَرْ،
يسأل الخيرَ أن يكونَ، سواءً
ناله المُجتديهِ أو نال آخرْ !
موطني ذاك، فاحمليه على العَتْب،
إذا جئتِ موطني ذاتَ يومٍ،
يا صَبا، وانظريه ما زال يُضفي
فوق جرحَيْهِ بَسمةً بَدْلَ لومٍ.
هُزُؤٌ بي، وصافحٌ موطني عنّي ؟
لَأيّ النِّبال أَوجعُ وقعاً ؟!
لا مَرَدٌّ !

الأعمى

محاولاً المُضِيّ في إضعافها

إلّا التقاؤكِ قدموسَ
تقولين : « عُدْ بنا ! ضقتُ ذَرْعا !
أين مِن عشتروتَ مَيعةُ أوربّ،
ومِن زوشَ مُدّعى قدموسا ؟! »

أورب

قلتَ شِقّ الصّوابِ، والحقُّ كلٌّ؛
لا تَمُسَّ الأَقداسَ، أعمى البيوسى!

الأعمى

معرِّضاً بضعفها

ساعدُ المرء، لو دريتِ، هو الحقّ،
وما الناس والسّاعدُ مَرضى؟

أورب

مُلْمِعَةً الى قوّة قدموس

قُل، فما همّ ما تقول على الغِمدِ،
وإمّا إن شِمتَ سيفاً فغُضّا.

الأعمى

ويلكِ! خُذّي من مطمعٍ لم يرَ النُّور،
ومن خفقِ أجنُحٍ لم تهُلّا؛
وارجِعي في رِكاب قدموس، لا أنتِ
افتتحتِ العلى، ولا هو ذَلّا.
ولَخَيرٌ تنازلٌ عن حبيبٍ
مِن رجوعِ القدموسِ حِمْلَ المَحاملْ؛

بسخرية

وتقولون ــ يوم تهزج صيدون،

ويمشي إلى السّفين الساحلْ؛

وتموج الغصونُ من قِمم المَكْمِلِ،

جَذلى، إلى مطلّ الغروبِ ــ:

« هو هذا اليَردّها من إلٰه ...

وهْي هذي التَسُلُّه من نُيوب ... »

أورب

رادّةً على تعريضه بأهلها

تصدياتُ اليدين لسن خُفوقاً

من فؤاد: يَمضِين هُنّ، ويبقى؛

صفّقت للطِّلاءِ كفٌّ، ولم تخفق

ضلوعٌ الّا لِما كان حقّا.

الأعمى

بُعْدَ ما خلتِني زعمتُ ــ ولا أمّلتِ،

عبرَ البحار، صيدونُ، زِفْدا ــ

أنا قصدي لو رحتِ تَصْحين من زوشَ،

وقدموسُ من وَغًى فتجِدّا.

أورب

كَشّرَ الـنُّصحُ عن نيـوب !

الأعمى

مصطنعاً العتاب

تجنَّيتِ.

أورب

وما النصحُ لم يُجلبِبْه حبٌّ ؟

عَضَداً جئتَني، فهِضتَ جناحي،

دَعْكَ لا لي قِوًى، ولا لكَ ربٌّ !

الأعمى

مستأنفاً محاولة إضعافها

قسمةٌ فاكتفي.

أورب

شعرتُ. تشبّث،

أيُّها الحُلم، بتَّ عند الشَّفيرِ.

الاعمى

مغرياً إياها بالاستسلام لقدموس

دربُ قدموسَ من هنا.

أورب

ويكَ ! دَعْني.

الأعمى

وقريباً يمرُّ.

أورب

مشيحة عما يدعوها إليه

يا أرضُ، دُوري !

المشهد الثاني

أوربّ ثمَّ مِرى

أورب

مُرّةٌ لفتتي الى النَّجدة الجوفاء،

والصدرُ بالفـــراغ يضيـــقُ ؛

أنـا مرميّـةُ الطَّريـق بَكَتْنـــي،

لبكائي ومـا هَدَتْنـي، الطّريـقُ.

بين قدموسَ، سيفـِ أهلي، ووحش الغرب،

واقِــيَّ طعنــةَ الخالــداتِ،

مهجتي، إن نُسبتُ عرقاً، وزندُ الباسط
النجمَ والسُّهى لالتفاتي.
يا لَسَهمَينِ لوّحا فأذلّا،
في سماواتها، عُلى عُنفواني.
مَن يُصِبْني أَقُلْ له عند قبري :
« لِمَ، يا سهمُ، أنتَ دون الثاني ؟! »

محطَّمة تكاد تسقط عياء

ما لعينيَّ غامتا، ولقلبي
أثْقَلَتْهُ مرارةٌ فتداعى ؟!
وتراخت يدي تَلَمّسُ لحناً
كنتُهُ في المدى، فألْفَتْهُ ضاعا ؛
وتهاويتُ رَغْدَةً للقائي
هذه الأرضَ، عند وقعيَ، أَرضا،
مِنّةً، يا دقائقاً لم تزل تسبح
حولي، لا تَنْهَبِي الدهر ركضا.

تدخل مرى فتلاقيها كأنّما تشكو
عبثَ ردِّه !

مرى
عَلِمْتُ.

أورب

متفكِّرة ثم كأنَّها وجدت حلاًّ

أَنــاةً

لم يَزَلْ أن أَراهُ.

مرى

باستغراب وهول

أَنْت ؟!

أورب

ونحيــا.

مرى

وتعودان ؟!

أورب

بحسرة

مـا عطفـتُ إلٰهـاً

فـوق زنـدي !

مرى

ولا هــو احتــلَّ دنيــا !

مستطلعة سِرَّ أورب

رأيُكِ الرأيُ أم ركنتِ إلى آخرَ ؟

أورب

لم أستمعْ لآخرَ، عمري.

مرى

غير مصدّقة

أيُّ سمٍّ !

أورب

نفثُه، أنا وحدي.

مرى

لستِ صِلّاً !

أورب

بُدّلتُهُ اليومَ.

مرى

كأنّما درت أنّ الأعمى هو الذي أقنعها

أدري.

أورب

لا تقصّيتنِي، عزمْتُ فلا أرجِع.

مرى

لا قلتِ

أورب

أو تكوني الرّسولا.

مرى

باستغراب وهول أشدّ

أنا ؟!

أورب

مستعطفة متذكرة

تستحلفينه بِلبانٍ

طابَ طعماً على فمَينا، وسُؤْلا ؛

بليالٍ سهرتِها لم تبالي

طاولتْ أم دجتْ، إذا نحن كُنّا ؛

بيدٍ إن تضمَّ تورِدْهُ عمراً ؛

وبقلبٍ ان يُعْطِ يُسكنْهُ ظنّا ؛

بأغانٍ عندَلتِها عند مَهدَينا،

فقاما على جناح اليمامِ،

أنْ دعِ الضربَة الغبيّة، قدموسُ،

فما كنتَ خنجراً في الظلامِ.

أنتِ أنتِ الوحيدةُ الوقعِ في قدموسَ !

مرى

رِفقاً ! أنوءُ بالعبء حملا،
أُطلبي العمرَ أمتهنْه على رجليكِ،
لا تطلبي إليّ الذلّا.
أنا علّمتُه التّمرّسَ بالمجدِ،
ولُقيا الفرسان صدراً لصدرِ،
ومَحطَّ العيون فوقُ، ودَرْءَ السّيل
يهوي بالرّاسياتِ ويَذري،
وابتدارَ الجُلّى بأسبقَ من جُلّى
كأنْ عوجسلَ القضاءُ بردٍّ،
واقتحامَ اليَموتُ لم يلتفتْ ظَهْراً،
ولا حُدَّ في العطاء بحدٍّ.
أترَيني، أُوربُّ، أنقض قولي ؟

أورب

ودموعي هذي ؟ وخَمْشُ الخدودِ ؟
وابتئاسُ الغيماتِ والموجِ والشُّطآنِ
في مدّ طرفيَ المهدودِ ؟
أهْي أشياءُ ؟ لا، وأفديكِ من أشياءَ
تَشْجى شَجوي وتأْسو جِراحي.
أُذكريها يوماً.

مری

كأنّما لا تجد ما تقول

أُحبّكِ !

أورب

بعتاب أليم

حقّاً ؟

مستطردة

واذكريني على ضريحِ الصباحِ
كان قصراً هذا الوجودُ، فكيف انهار،
والعمرُ سانحٌ في فنائه ؟
وهوى بالعَليّ من عُمُدٍ هيفاءَ
راحت أشلاءَ خلف مسائهْ.
نوّحت حيث كان زقزقةُ الطّائر،
ما آنست كأسٍ صِحابا.
تنهر الثانياتِ، كرّت على الأرض
ثِقالاً أن لا تَحُرّي التّرابا.
قُبُلاتٌ هُنا، وسكْبُ دموعٍ،
وقدودٌ هناك، غنّت لِيانا.
أيّهذي الأنقاضُ، أوْديتِ بالحُلم،
فهيلي من فوقه البَيلسانا !

مرى

موجّعة نافذة الصّبر

رأفـةً بـي !

أورب

بعتاب

وأنـتِ !؟

مرى

أرأفُ من سهمكِ.

أورب

كأنما شامت بارقة امل

ماذا ؟ رَضِيتِ ؟

مرى

لم أرضَ بعدُ.

أورب

بعدُ ؟! يا طيبَ مَن يَهمُّ بوعدٍ ...

مرى

لم أقلْ، لا.

أورب

... ومـا هنـالكَ وعـدُ !!

مرى

أَوَتَرْضينَ لي بها، إن أنا أرضى ؟

أورب

أنا اخترتُ بين شرّينِ.

مرى

كُفّي.

كلَّما رُحتِ تُقنعيني، شعرتُ السُّمَّ

في بَسمتي له، قبل كَفّي.

أورب

أَوَأَدْمَى من مُرْتماي أنا ألقاه ؟

ماذا ! وينطوي اليومانِ ؟

عهدُهُ هٰهُنا، وعهدي بدنيا

زوشَ، والصَّفوِ، والهوى، والأماني !

كان لا بُدَّ من هناء يُضحّى،

فلِمَ اثنانِ ؟!

مرى

لا ظلمتِ مُرادي.

لم يَفتْني أنْ لو تراجع قدموسُ

لكان السَّوادُ بعضَ سوادِ.

وبَقِينا : أنتِ المليكةُ في زوش،
وأمّا أنا ...

أوربّ

كأنّما تريد وقفها

مـرى !

مرى

... فخؤونَهْ ،

زيّـنتْ خفْضةَ الجنـاحِ لِنَسرٍ
شكّ في ملعب النُّجوم جبينَهْ.

أورب

مَن ؟ مرى، مَن سواكِ يَرأفُ بي بعدُ ؟

مرى

برجاء

حَنانيكِ لا !

أورب

مـرى، رُحْمـاكِ !

وكمن أمّلت إقناعها تروح تغريها بأن تدلّها على الطّريق التي سيسلكها قدموس

هذه دربُه، وقبلَ بُزوغ الصُّبح.

مرى

مُشيحة بدورها عمّا تدعوها إليه

سُمّـــرتِ، دَورةَ الأفــــلاكِ !

البيـــوسى غداً أغاريـــدُ نصرٍ

حول تنّينهـا، وهَـــزجُ نساءٍ،

وفتى الشرق مُوحَدٌ، لا قُدودٌ

راقصاتٌ لسيفـــه المعطـــاءِ.

أوَلن يستثيرَه، يا ترى، الشوق،

ويَشْهـــى كـــأنْ الـــى صيـــدونِ ،

ويقول : « اصعدي إليّ دُفوفاً

ومزاميـرَ واشهـدي ليُمينـــي » ؟

فيراني ألقاه مقروحة الأجفان،

ندّابـةً أحُـرُّ الجَلامـــدْ ! ...

صارخة كأنّما استشعرت أنّها إنّما تكلّمت مقتنعة

لا ! وجُمّعن بي، نساؤكِ ، صيدونُ،

غَداةَ ابنُكِ استطاب الزّغاردْ.

أورب

بيأس

أنا رَيحانةُ الخريف شَجاني
نبأُ الغيب مُزّقت أَستارُهْ،

غديَ الزمهريرُ إن قلتُ أَبقى،
وربيعٌ أَمسي يَهُدّ اذّكارُهْ.

كان أَيارُ وافتراريَ في السّوفِ،
ويأتي الآتي وأحلاهُ فُضّا،

لم يزل لي إلّاكِ، يا صُفْرَ اوراقٍ،
فَطِيبي كحلاً لعيني، وغمْضاً.

واغمريني، فانت أحنى على الأرض،
وأبقى من كلّ رفٍّ وهَلٍّ،

ألعُلى سؤلُهُمْ ! وما بكِ من فَقرٍ،
فظلّي فريدةً دون سُؤلِ.

بقيتْ خطوةٌ إليه، وتُحكى
قصةٌ من خُرافةٍ ومُحالِ !

قيل : « كانت إلٰهةٌ. » وانتهى القول !
فيا طفلةً لَهَتْ بظلالِ !!

نافذة الصبر
ما لقدمـــوسَ لم يُطِـــلَّ ؟

مرى

كأنّما تستيقظ من غفلة

كِليهِ
لي. رضيتُ التقاءَه بدموعي.

أورب

كأنّما لا تصدق
أَوَحقّاً !

مرى
طِيبي ــ فديتكِ ! ــ نفساً
واطمئنّي إلى جريحِ ضلوعي.

تعانق أورب

أورب

قـادمٌ مـن هنـاك.

مرى
طلعةُ قدموس !

أورب

قبل أن تخف الى الكهوف التي سوف تختبىء فيها

تسملّتِ، يا مرى، آمالــــي.
ليس إلّا يداك بعدُ : تشاءَان،
فصبحٌ غدي، ولا، فَلَيـــالِ.
واحذري لا يخُنْك لفظٌ كحدّ السّيف
يَفري، او كالتّعِلّات يُغري،
إنْ يَفُتْ قولَكِ النَّفادُ إليه،
فأنـا ههنـا لأفضحَ أمــري،
وتكونيـــنَ أنتِ سلّمتِنـــي

مرى

رَبّي !

أورب

وتحيَيـــنَ من يديكِ بشانِ !
كلّما همّتا تراءَى لكِ الإثمُ،
فأجفلتِ منهمـا تلحقـانِ !!

تلجأ إلى أحد الكهوف

المشهد الثالث

أورُبّ (مختبئةً)، مِرى، ثمَّ قَدموس

مرى

رأفةً بي! وهَمتِني جلمدَ القاع،
ولي — مَن مُصدّقي؟ — بعضُ قلبي،
يصدم الصَّخرَ في الليالي فيرنو
قائلاً: «هل أصبتُ صخراً بكَربِ؟»
ذُدتُ عن ركبنا إلى الشَّمس بالغضبة
جاشت في صدريَ المَكلومِ،
لستُ فيهم، فهل أقلُّ من الإيمان
بالفاتحين أرضَ النُّجومِ؟!
هو قدموسُ! ما أقول لِقدموسَ!؟
وهل في الوجود غيرُ الحقيقةْ؟
شيمةُ النَّبرةِ العَلِيّة في أهلي،
وفي تِلكمُ الجبال الطَّليقةْ،
طوّقونا بها قلائدَ حُسنٍ،
وزَهَونا بها على كلّ شاهِقْ،
ربِّ ان خنتُها فلا خَفَقَت نارٌ
بصدري، ولا نَعِمتُ بِبارقْ!

بعتاب لنفسها مرير

ويحَ أوربّ ! ما أرادَتْ وما نالت ؟

خداعاً منّي لنفسي العليّهْ ؟

وكلاماً يُنمّق الزُورَ في عيني

ويُودي بالمَكْرُمات السَّريّهْ ؟!

لِمَ، يا قولُ، ما عَييتَ عن القول،

ولا رُحْتَ شيمَةَ الصّخر شهما ؟!

شرفُ الصَّخر أنَّه القبرُ لا يَنطِقُ،

حين القولان تَجْوابُ أعمى.

ما الحياةُ ؟ انتباهةٌ من فتًى سَكرانَ،

عارٍ، مشوَّهِ القسَمَاتِ،

وقَعَتْ عينُه على حالِه، فانهال

شتماً على الصَّباح الآتي،

ثَمِلاً ؟ كان. والذي يَلطِم الآن

جبيناً كمَنْ يحطِّم آنَهْ،

ليس في سكرةٍ ولا في خبالٍ :

بَشَرٌ مجّ للبِلى انسانَهْ !

يدخل قدموس فيصدمها تقلده السّلاح

أسِلاحٌ، قدموسُ، والخصمُ أفعى ؟!

قدموس

معرضاً بها هي وقد تواطأت مع أخته على الهرب

عدتُ أخشى، مرى، نيوبَ الأفاعي !

مرى

لنفسها

ربِّ !

لقدموس

والعهدُ بالنُّزول الى الساحات

كالحقّ، أعزلاً، والشُّعاعِ ؟

قدموس

كان.

مرى

مَن ذا يقولها ؟ أنتَ، قدموسُ ؟!

قدموس

مستمراً في التّعريض بها

وعمّن أخذتُ نَقْضَ العهودِ ؟!

أَقْصِري ! فيمَ جئتِ ؟

مرى

أسألُ حقّ

العبد ـــ فأُرأفُ به ـــ على المعبودِ.

ما أنا مَن تَروغ، أو ترتضي الزُّورَ :

أنا جئتُ أطلبُ المستحيلا،

أنا أدري أَنْ ليس يُعطَى، وإن تجعلْه

صيدونُ سُؤلَها المأمولا،

مطلبٌ ذلُ مجتديه ومعطيه،

وجَرحٌ لخاطرٍ يستعيدُهْ،

ولَمَهما تحطَّ منّيَ أعلمْ

ما لِبانٌ أُرضَعتُهُ ـــ فأريدُهْ!

قدموس

بِهَلَع

تطلبين انكفاءَ صيدون ؟!

مرى

لا قُلتَ، حَنانَيْك، لا !

قدموس

لِمن تعملينا ؟

مرى

إسمعي، يا طُويِّتي، ظنَّني خُنتُ.

وقدموسَ، ما خفضتُ جبينا،

وبلادي ــ أنا ! تُراها هو الكُحْل ؟

قدموس

كأنَّما يخاطب نفسه

لها نبرةُ البريء أُصِيبا !

لمرى وقد عاوده اهتياجه

ويثيرُ الضميرَ ما طلبتْ منّي !

تمزّقتَ، يا قِناعاً كَذوبا،

حسبُنا رَشفةٌ من الكأس، هل ألفيتَ

في الكأس غيرَ سُمٍّ ناقعْ ؟

رُبّ أفعى كسوتَها ثمن الخبز

حريراً، وبات طفلُكَ جائعْ !

مرى

بتجلد

أعطِني، ربِّ أنْ أُغالبَ صوتَ الدَّمع

صبراً، وإنْ أنا اشتقتُ دمعاَ،

فبكاءٌ ويكفهرَّ صفاءُ العيش

أندى من الهناءَات وَقْعا.

أُخنقي مِن أَساكِ، يا عَبَراتي !

لقدموس موقظة منه تذكارات الطُّفولة

هل يقولُ الماضي لقدموسَ شَيّا ؟

ما أنا اليومَ في الوجود، أنا في الأمس:

لبنـــانُ في مدى عينيّــــا،

ذاك قدموسُ دارجاً عند بابي،

وذراعـــاه مُدّتـــا لعنـــاقٍ ؛

من رأى يا تُرى ؟ أَمَنْ تسهر الليل

عليه أم ... رِمّةٌ من نِفاقٍ ؟!

قدموس

متأثراً، نافد الصَّبر

لا، وتُفدَين، لا تقولي ! تَهاوَى

كلُّ ما بي مِن شاهقٍ تيّاهِ،

وبَكانـــي الطفـــلُ القديــــمُ.

مرى

بعتاب وحبّ وعبادة

تجنّيتَ،

رضيعـي، وسيّـــدي، وإلهـــي.

قدموس

بِحَيرة

مَن تُراني مرجّحاً حين أختار :
مِرى الشُّهبِ أم مِرى الأوحالِ ؟
صفحةً تَعْبَق الكرامة منهـا
أم صِراطاً يجري وراء الضَّلالِ ؟

مرى

لم تزل واجداً عليها ويبكي
لأساها، لو ينطق، الجُلمودُ ؛
غَدُها ...

قدموس

آه ! حبّذا غَدُها يُطوى،
وتبقى هذي النجومُ السّودُ !

مرى

أنجوم من بعد أوربّ ؟!

قدموس

مَنْ أوربُّ ؟
ماتت مُذ ودّعت لبنانا !

مرى

لم نودّع ما بات في الصَّدر حبّاً،

حيثما الحبّ كان، لبنانُ كانا.

دعْكَ لا تَحفِلِ الحفيظةَ، قدموسُ،

ولا تجْتَدِ السِّلاحَ البوارا.

يَعدلُ الحُكم يومَ يَصلح أهلوه،

فما هُم ضغينةً واثّئارا.

قدموس

وقد عاوده حُنقه عليها

أنتِ ؟ ما أنت والتَّبجّحَ بالعدل ؟

تُرى العدل عاد دُميةَ لاعِبْ ؟

لفظةً في فم الأَثيم ؟! ألا يخجل

أعمى يرنو إلى الشمس، كاذِبٌ ؟!

كان لي بعضُ رحمة فاستحالت

مذ نكأتِ الجراح حِقداً وثارا،

وإخال الهوى توحّشَ في صدري،

فأَنشبتُ في الهوى أَظفارا.

مرى

لنفسها

ربِّ، أَمسِكْ بها ! فلا لقِيَتْه
وحشَ غابِ.

لقدموس

عهدي بقدموسَ أعلى.

قدموس

إثمُ أوربَّ حطّنا من عُلانا
وكسا أرضَنا، على الدَّهر، ذُلّا !

تظهر أورب من مخبئها نافذة الصّبر على رزانة

مرى

ربِّ ! عُمْرُ الإلٰهةُ الآن ...

أورب

عُمْرٌ ؟!
ماءُ وجهي أعزُّ عندي وأبقى،
أغمِدِ السَّيف في فؤاديَ يقْطُرْ
شرفاً، عندما يُسَلُّ، وخُلْقا !

قدموس

ويكون قد حاول سَلَّ سيفه، فيعيده إلى غمده

لا ! وسيفي يعَفُّ عن طعن أُنثى.

أورب

متحدّية كأنّما تريده إلى قتلها

أنَبـا ؟

قدموس

بغضب

بـل سَخـا.

أورب

بغضب رزين

رددتُ السَّخاءَ !

لستُ أخشى، قدموسُ، سيفكَ فاضرِبْ ؛
ما صبـاحٌ أهنتَــه، وأَضاءَ ؟!

قدموس

وبـلادٌ هجـرتِهـا !.

أورب

دعـكَ منّـا.

بيـن طَيـرٍ وعُشّهـا أسبـــابُ،
كلَّ يومٍ لها طَوافٌ بدنياء
والطوَّافُ الأشهى إليها الإيابُ !

أنا أوربّ، عُذْ بأروبّ، قدموسُ،
ولا يَقْتَتِـــلْ بيَ الوطنـــانِ.

قدموس

إنطِقـــي بأسم واحـــدٍ.

أورب

لا. وهٰـذا
وطني بالهوى، وذاك نَماني.

قدموس

لستِ منّا !

أورب

رُحْماكَ !

قدموس

رُحْمى لِمن تَخفِضُ
أمجادها وتَنسى الودادا ؟

أورب

دامعة العينين

ضِقتُمْ بي ؟! ورحمةٌ من بلادي
تَسَع الأرضَ حيَّها والجمادا !

قدموس

أبلادٌ عُقّت، وظلّت على العهد ؟!

أورب

بلادي أنـا، ولبنـانُ عهـــدُ !

ليس أرزاً، ولا جبالاً، وماءً ؛

وطني الحُبّ، ليس في الحُبّ حِقدُ.

وهو نورٌ فلا يضِلّ : فكدٌّ،

ويَـدٌ تُبـدع الجمـالَ، وعقـلُ.

لا تَقُلْ : « أُمَّتي »، وتَجْتاحَ دنيا؛

نحـن جارٌ للعالَميـن وأهـلُ !

قدموس

عبثٌ : لا أعودُ أو يُقهَرَ الغربيّ

أُوربّ

بهَول كأنّما تتوقع ما سوف يقول

لا لا، تضِـلُّ !

قدموس

أهْـوى الضّـلالا !

أورب

وتكون قد أشاحت بوجهها عنه وهو يقول: «أهوى الضَّلالا»، وتجديفه هذا على المعرفة انما يطعنها في الصميم.

بِمْ تفوّهتَ، يا أخي!؟ عُقَّ صيدون ؛
وغَيّضْ أنهارَها والجبالا،
واشربِ الخمرَ في جماجم أهليها،
ودُسْ تاجَها، وذُلَّ السَّريرا،
وازرعِ المِلحَ حيث ماتت فما تحيا —
ولا تذكرِ الضَّلالَ فخورا!

قدموس

وبِمَ الفخرُ، بعدَ أوربّ؟

أورب

بالرَّحمة
سطَّرتَها سخيّاً شفيقا،
تأخذ العالمين بالرِّفق والطِّيب،
وبالهَدْيِ، إن يضِلّوا الطريقا.

قدموس

أيّ عِرْقٍ في الغرب يَنبِض بالرِّفق،
فيُجزى الجزاء حُباً بحبٍ؟!

أورب

أيّ صيدونيٍّ تربّى على البغض،
فيحيا للثّأر ضرباً لضربٍ ؟!

قدموس

علّمونا، فسوف نَضرِب بعد اليوم.

أورب

عارٌ ما قُلتَ، قدموسُ، عارُ.
قُلْ : « بلِ الخيرُ أن نعلّمهم نحن،
فما علّم البناءَ الدّمارُ ! »

المقاتلة الأغارقة

من الدّاخل

طابَ طابَ القتالْ !
واغتدى اليومُ قصيرَ الأجَلْ،
ضِجَّ، يا فجرُ، وقلْ للأزلْ :
نجمُ صيدون مَالْ !

ما لها تُطرقُ،
مذ جرى الغربيّ، هٰذي الجبالْ ؟
وامّحى عن جانبيه المجالْ !
وامّحى المشرقُ !

نحن، يا شرقُ، لا
ننثني، أو نقهرَ المَركبا؛
غُلّ بحراً، وافتتحْ كوكبا،
ثبقَ دون العلى!

قدموس

وقد تحدّاه الأعمى بنشيد الأغارقة

واجبي.

أورب

في محاولة أخيرة كأنّما تراب بلادها أقدس ما تستحلفه به

لا، وتْربِ صيدون، لا تحفِلْ

قدموس

رادّاً استحلافها، مشدّداً على عظم الواجب

بلى واجبي دعا.

أورب

منكسرة

لا تَسَرَّعْ!
واتَّئدْ عندما تردُّ ذراعاً؛
رُبّ قلب خلفَ الذّراع تَقطَّعْ.
عُد بنا، يا أُخَيَّ، ها أنا أُرجعتُ.

يردُّها

معاذَ العُلى الرُّجوعُ بمرأهْ،

والنِّزاعُ اغتدى نزاعاً على الدُّنيا،

وحُكّت بجُرأتي كلُّ جُرأهْ !

هُم أرادوهُ دامياً، فليكنْ أدمى،

ويفصِلْ على كّرور الزّمانِ،

بين سَيفٍ أهْلِ اعتداءٍ وسَيفٍ

هادمٍ حدُّه، وبالهـدْم بانِ.

ستار

الفصل الثالث

المشهد الأول

مِرى وحدها

محاولة تَشدُّداً

لا، ولبنانَ، ما نَمتْني جبال
كَرُمتْ فازدرتْ من الناس لَوْما ؛
لا، ولا عزمةٌ بمجذاف طفلٍ
حالِمٍ كيف يُلجمُ البحرَ يوما ؛
آن أَشرفتُ مِن بعيدٍ على الوحش،
وبي بعضُ رِعشةٍ واهتياجٍ،
في الشِّعاب الرِّمضاء من بطن واد
مُدلهمٍّ كما المآثمُ داجٍ.

لم أَكن شِمتُه فأعتاد مرآه،
ويا هَولَ ما تَصدّى لراءِ !
ذلك الغربُ مستحيلاً إلى الصِّلّ،
غوِيّاً بالمِخلب المِعطاء.
خفتُه — عفوَ رُدْن قدموس ! — يهوي
فوق قدموس، ضافيَ الجسم، طَوْدا
ساحقاً، ماحقاً، يكاد حضيضُ الأرض
يخشى له، إذا مرّ، عَودا.
ما دهاءُ الرِّجال ؟ ما الغضبةُ المئناف ؟
بالٌ معطّلٌ مسحورُ،
أيُّها الغرب، هاتِ ما ليس بالضَّخم.
كبيرٌ ؟ بالعقل أنت كبيرُ !
ربما رُحتَ تقهر الأمّةَ الحَفنَةَ
أرضاً، والعبقريّةَ أُفقا،
فاخشَها، عهدَ قولُها القولُ، هبّتْ
تتقاضاك، أيّها الغربُ، حقّا !

يشتد تشاؤمها

لَمْ أخف، لا ! وريبةٌ خامرتني
أنا جسّمتُها فَحرَّتْ ضلوعي.

ولِمَ الليلُ في شُعاعة عيني ؟
وعلامَ الجفافُ طَيّ ربيعي ؟
مَن أسرّ احتمالةَ الخَسْف في روعي
وقال : « انتهى غداً، قدموسُ ».
توأمُ العزم، حامِلُ الشَّرر الأوّل
يهوي، وفي الوجود شموس ؟!
سوف نبقى ! يشاء أم لا يشاء الغيرُ،
فاصمُدْ، لبنانُ، ما بك وَهْنُ !
سوف نبقى! لا بُدَّ في الأرض من حَقٍّ،
وما مِن حقٍّ ولم نبقَ نحنُ !

المشهد الثاني

مِرى، أورب

أورب

بتقريع

إطمئنّي بالاً، مِرى، اشتبكَ القِرنانِ.

مرى

رُحْماكِ ، لا تَرِيشي السِّهاما !

أورب

انا ؟ مَن لي بها فأُرسلَها تفتتُّ

من مهجتي دماً وعِظاما !

متذكِّرة نزول قدموس إلى السَّاحة

رمقته عيني، فيا بؤس عيني !

يقحم الموتَ، عهدَه وهو قانصٌ،

يضحك الضِّحكةَ المُرنّة كالسَّهم،

ويجري كَرِعدةٍ في الفَرائص.

حمَّل الريحَ وقعَه، أنا قلتُ الشَّطُّ

يُصغي، والبحرُ يعروه هَمْدُ،

والصَّباحُ المسفوحُ في جَمَمِ الأمواج

يعلو، كمَن أطلّ، ويشدو.

داس ضَرْعَ الإغريق قدموسُ ثَبْتاً،

عبقريَّ الهمّاتِ، طَلْقَ المُرادِ،

لم يَزِنْ خصْمَهُ، ولم يَزِنِ السَّاحةَ،

كالطَّود لم تُخِفْهُ عَوادِ.

ومشى، مسحةَ السَّنى، هل نَضا سيفاً ؟

وهل سَلَّ خنجراً من حزامِهْ ؟

لا، وروعُ التنّين يَغلي وعيناهُ

مهاوٍ من القِلى ومَهامِهْ،

يتمطّى تَهيُّؤَ الحاملِ الضَّاري
وتجوابَ طَيِّعِ الجسم، ضامرْ،
يضرِب الأرضَ بالجناح وبالذيل،
كما يقحم المُحالَ مُكابرْ.
قال قدموسُ: «ها أَنا!» واحتواه
بذراعيه.

مرى
أَكملي، ضاق صدري!

أورب
لم اشأْ أن أَحطَّ في الأوجَع الطَّرفَ،
فروحي اشهديهما، عند قبري!

المشهد الثالث
أورب وحدَها

نؤتِ، نفسي، بالعِبء، فاعتمدي الأرض،
أَما هزّنا إليها الحنينُ؟
وانتحِي مطرحاً من الصَّخر خَشْناً؛
رُبَّ صخرٍ، عند الشَّكاةِ، يلينُ.

ربِّ، ما نفحةُ السَّعادة في الأرض ؟
ضُحىً خاطفٌ يزور النِّياما ؛
حظُّهم منه مطمعٌ بالتَّلاقي،
فإن استيقظوا غدا أحلاما.

أنا خِلتُ الحياةَ مَدَّ ذراعين
إليها، ورَشْفَ ثَغرٍ جميلٍ،
واكتحالاً بالصَّحْو والأمل الطَّلْق،
ومَرّاً في خاطر المستحيلِ.

ضجعةً فوق أَضلعٍ واجداتٍ،
وقياماً على سنًى وأريجٍ،
ضاحكاً وجهُها لِبُحبوحة العمر،
على رَنّتينِ من دُملوجِ.

فتبدّتْ جوفاءَ كالقبر، إلّا
من مخيف الأطياف والأشباحِ،
خفقةٌ شابها دَمُ الأجْنحِ البِيض،
ونفخٌ عَراه موتُ الأقاحي.

ليتني رُحتُ لم أَضِقْ بهما ذَرْعاً،
وحُمِّلتُني كُرورَ ثوانِ،
أشهدُ السُّمَّ كيف جوَّده اثنانِ
لكأسٍ هما بها ثَمِلانِ.

توّاقة إلى جَسّ المستقبل

من مُزيحُ الزّمان عن عرشه الغفْلِ،
ومستصرخٌ، من الغد أنّهْ،
علّني أفجأ الغيوبَ سلاماً
قبلما تغتدي ظُبّى وأسِنّهْ.
أيُّها الأنتظارُ، يا صفحةً مِ العمرِ
حُبْلى بكلّ ما ليس يُقرا،
صخرةٌ عِبْؤها على الآنِ شدَّته
إلى بعضه، فسُمِّرَ دَهرا !

المشهد الرابع

أوربّ، الأعمى

الأعمى

سَلّ سيفاً قدموسُ ما حدُّه حدٌّ،
وحاميكِ مثخَنٌ بالجِراحِ.

أورب

لا تَخفْ أن تقول: «مات !» ولم يَبْقَ
لعينيَّ مطمعٌ بصَباحِ !

الأعمى

لم يمتْ فانجُديـــــــــــهِ !

أورب

ويحَـكَ ! ماذا ؟

أوَ أُغدو من خلف قدموسَ خَنجرْ ؟!

الأعمى

إنَّما ذُدتِ عن حياتِك، أوربُ،

إذا ذدتِ عن دم راح يُهدرْ.

أورب

فيمَ تُغري يدي بسفك دماءٍ

وأنا رحتُ من يدي أتبرّا ؟

يوم دَلّت على البسيطةِ قدموسَ

وخلّت، انّي تحطّمتُ، ذِكرى.

الأعمى

أيُّ ذكرى وما وفيتِ بعهدٍ !

أورب

لحبيبٍ !

الأعمى

لا بل لحامـــي حِمـــاكِ.

أورب

يا لَوَحشٍ يبغي انتصاراً لوحشٍ!

الأعمى

بل حِفاظاً على كَذابِ هَواكِ.

أورب

بتفجّع وحسرة

هكذا، يا هواي، لوّحتَ تُغريني

بعمـــرٍ أُغنيّـــةِ الأَدهـــارِ!

لم تشأْهُ إلّا لِتَسْتُـــرَ عيبـــاً

هو ظِفرٌ، ولا كظفر الضّواري.

الأعمى

من تُرى أشعـــل الوغـــى؟

أورب

هَبْهُ قدمـوسَ،

أأَقضي أنـا علـى قدمـــوسا؟!

أأخٌ قاتلٌ أخاً ويُرى نورٌ ؟
ألا دُمتَ، يا دُجى، لي انيسا !
وتمزّقتِ، قبل أن طبتِ في ثغرينِ،
يا قبلــةَ الغــرام الشّهيــدِ ؛
لِلجفـون المُقرّحـات، سَتبقَين،
وللدّمـعِ حافـراً في الخـدودِ.

الأعمى

لو تَصبَّرتِ وسْعَ بؤسكِ ، فالأقدارُ
عُمــيٌّ، تحبـو وتـمـنعُ.

أورب

تَحْبُو !
يُقرأ الفجرُ في غُيوم العَشايا.

الأعمى

ويُلاقَى، قبل الهنـاءِ، الصَّعْبُ.

أورب

فليَكُنْ ما يكون ! أحياكِ أم لا،
يا حياتي، فمـا أنـا لِأُبالـي.

الأعمى

محبِّباً إلى أورب العيش، قصدَ استخدامها في رَدِّ قدموس

أنتِ، أوربُ، تكفُرين بنُعْمى ؟

أنتِ، يا نجمةً تَمرُ ببالِ.

أيُّها الحسْنُ، سَكْبَ من سَكَب الشَّمسَ،

وقال : « ازدَهي على كلِّ حسنِ.

واخلبي حبّة القلوبِ، وضُجّي،

في تَثَنّيك، بينَ رِيفٍ وجُفنِ.

أنتِ للتّاج، للتحرُّش بالأولمب،

للعـــزفِ طار بالأوتـــارِ،

ولأرضٍ جاءت إلى الكون، مذ جئتِ

علـى سَجْعـة من الأطيارِ ».

أوَأشهى من الحياة ؟!

أورب

بلـى، أعمـى

البيوسـي : استهزاؤنـا بالحيـاة !

يومَ تغدو الحياةُ قِسمـةَ حُرٍّ

حَمَّلوه للغـدر سَيْفَ الجُنـاةِ.

الأعمى

مَن سواكِ الأَثيم ؟ تحيينَ حُلماً
يتخطّى الدُّنى، ونحن نُقاسي !

أورب

ما غَوَتْني العروشُ، يوماً، ولا السُّؤدُدُ:
أحبَبْتُ فاستشـرتُ الـرَّواسي.

الأعمى

أَقصِري ! كَرُّ ثانياتك معدودٌ،
ودنيـاكِ خَطْفَـةٌ في الزَّمـانِ.
لكِ أم لا رأيٌ فقرّي على رأيٍ ؛
ولات البلـوغُ بعـد التَّوانـي !

أورب

وَيْكَ ! ماذا تريد ؟

الأعمى

حَجْـبَ دمـاءٍ.

أورب

كيفَ ؟

الأعمى

رُدّي عنّا الكَمِيَّ العنيدا.

أورب

هو يأبى.

الأعمى

دوسي الأبيّ، اقتليه.

أورب

بهول وحُبّ

هو قَدموس !

الأعمى

لا تُقيمي حدودا.

المشهد الخامس

أوربّ، الأعمى، مِرى

مرى

وقد سمعت قول الأعمى
ألقميه الجوابَ !

الأعمى

كأنَّما يبرّر مطلبه

أيُّ جوابٍ ؟
صرّعَ الوحشَ وحشٌ صيدونَ جُبناً !

مرى

لا ! وكان الخَصمَ الشَّريفَ فَعالاً ؛
راحَ يأسو جرحَ الجريح، ويُعنَى،
وكَمَنْ بُكّتَ انتحى ؛ قلتَ أَسْيانَ ؛
وقلتَ احترامَ نِدٍّ لِنِدّ.
وتمنّى لو ينهضُ الجبلُ الموتور
يحبوه بالجوابِ الأشدّ.
كاد يرضى بالنّصر، لولا هُتافٌ
خِلتهُ الدَّهرَ صُدَّ عند الشَّفيرِ :

« هَيْتَ، قدموسُ، طِرْ وأَنجِزْ عليه
فُضّ وازرع أَضراسَهُ في الصُّخورِ
تُنبتِ الأرضُ ماردينَ عُلًى ينون
ثيبا أعجوبةَ الأجيال.
تلك أُولى حواضرٍ مئةٍ تُبنى
على اسمِ القَدامِسِ الأبطالِ. »
عَفٌّ، لولا أنْ عاودَ الخصمَ عزمٌ،
وكَمَنْ هِجْتَ اصبعاً في جراحِهْ،
سَلّ من ضعفه قِوًى، وأتى قدموسَ
في جَهْمِ ثأرِهِ ووقاحِهْ.
رَدّ قدموسُ عن سَخاً.

أورب

أَوَأرداه ؟!

مرى

تشكّين ؟ شِمْتُه استلّ عَضْبا،
ما استطابتْ عيناي إن تريا القتل،
وعِفْتُ التقاءَ حاميكِ كُبّا.

الأعمى

أَوَلم تشهديه يَسقط ؟

أورب

ما هَمّ ؟

ويكفي أن سلّ قدموسُ سيفا.

كأنّما لا يزال يؤمِّل أن يكون الوحش على قيد الحياة

ربّما ... فانهَدي.

مرى

الى أينَ أوربّ ؟

إلى حيثُ يعدِلُ الحَيْفُ حَيْفا.

أورب

موقنة أنَّ أورب بلغت من الحمق أن ستطلب عون زوش على قدموس

أإلى زوش ؟!

أورب

إي، وقدموس، أرتدُّ

بسيف العُلى على قدموسا !

الأعمى

لنفسه

فَعَلَ السُّمُّ فِعلَه فإلى السَّاح.

المشهد السادس

مرى وحدها

تَضلّانِ، والذي ضَلّ دِيسا !

تُصلّي

رَبِّ، رُدَّ الأهوالَ أقبلن يضربنَ،
وجُدْ لاتَ ما خَلاكَ يَجودُ !

ربِّ، جَلَّت يُمناكَ لا تعرفُ القَبْضَ،
فمَن منكَ، ربِّ، لا يَستزيدُ ؟

كلّما غَبَّتِ الحَساسينُ من ماءٍ،
رَنَتْ حُلوةً إليكَ بشكرِ.

وتعالت إليكَ في لفتة الصبحِ،
صلاةٌ من زَقزقاتٍ وزَهرِ،

جُمّعتْ، ربّيَ، الخليقةُ في صوتي
تُناجي، وسَبَّحت تُتغنّى،

وتَملّت، في رِفعة الرأس والطرف،
جُثُوّاً من رُكْبَتينِ ووَهْنا.

وأنا أستجيرُ بالرَّحمة الأولى،
بنُورِ الأنوار، باليَنبوعِ،

أنْ تَقَبّلْ، رَبّي، قَرابينَ حُبٍّ،
ورجاءٍ، وذِلّةٍ، ودموعٍ.

أعطِنا، رَبِّ، قبل كلِّ عطاء،
أن نَحُطَّ التفاتةً في سَناكا،

كلُّ ما دون وجهك الجَمِّ وَهْمٌ :
أعطِنا، رَبِّ، أعطِنا أن نَراكا !

وترأَّفْ، يا أيُّها السعةُ الكبرى،
وترأَّفْ، باللائذِ المحتاجِ،

وانصُر القابسين من فَيضِك الهديةَ
للكوكب الضَّلول الدَّاجي.

لألأتْ كلُّ هَضْبةٍ فوقَ لبنانَ
تُصلّي، وهامَ كلّ فضاءِ،

وتَسامى مَجامراً جَبَلُ الأطياب،
فافتَحْ، يا ربِّ، بابَ السَّماءِ !

المشهد السابع

مرى، الأعمى

الأعمى

بِشْرَ شَعبِ الإغريق ! بشرُكِ ، أوربُ،
فقدموسُ بين حَيٍّ وميْتِ.

مرى

وقد استحال عليها تصديق النبأ

كَذِبٌ.

الأعمى

لو رأيته جرّر الخِزيَ
جريحاً على الثّرى، لازدَريتِ !

مرى

كان دُنيا.

الأعمى

وذَلّهُ الخصمُ ذُلاًّ.

مرى

متذكّرة تتمّة بطولته

أنا أبصرتُه قُرَى كبرياءَهْ.

وتلقّاه، حذرةَ الرّدّ، بالضّربةِ
كبّت على الحضيض مضاءَهْ.
هاج يكسوهما العَجاجُ، فلم أُبصرْ
سوى السّيف صاعقاً كالضّميرِ،
والأساطيرُ حول ضربته تولد
في الصّخر، في الرُّبى، في العصورِ.
أجفلَ الشّطُّ، أجفل الموجُ للسّاحة
ترتجُّ بالبطولة عَريا؛
فتُعير البحارَ خوفاً، وتكسو الصّمْتَ
عمقاً، وتُكسب الشمسَ جَليا.
أنا أحسستُ عند وَقْع الجناحين
صُراخاً من عالَمٍ في انهيارِ،
يتولّى مُحلولكاً في الدّهارير،
ويفنى مُوَلْولاً في الدمارِ.
وعلى الأنمُل السّنيّاتِ من قدموس
بيضاءَ نجمةٌ تتفتّحْ،
طافراً من جلالِها مثلُ صبحٍ
يتعالى بينَ النُّجوم ويمرحْ.
أفهذا، أعمى البيوسى، يُسام الخَسفَ
والذّلّ؟ لا.

بـلى ! وقضـاءُ

حطّ من كبريائِهِ عند صخرٍ
قابـعٍ، فهـو والمنـى أشلاءُ.

مَن مَعيني أصُبّ في سمعك الوقعةَ
أبلـى فيهـا القضاءُ سخيّـا.
قال : « ما كان للمُكابر عزمٌ ! »
وطـواه علـى المَذلّـة طيّـا.

أنا، مِن خِيفتي، حَملتُ الى زوشَ
صراخَ الصَّريع حَولاً وطَوْلا،
أنا أرجفتُ حول قدموسَ أنباءَ
اقشعرّت لهـا الفَرائصُ هَولا،

حرّكتْ زوشَ رِعـدةٌ فجَرّتْـهُ
غَضَباً مُتْرَعَ الشَّبـاب، أصمّا،
وغَلَت في يديه صاعقةٌ شمطاءُ،
مولـودةٌ مع الدَّهـر قِدْمـا.

ومشى في غَمامَتين إلى قدموسَ،
يهـوي بزَعـزعٍ إثـر زَعـزعْ،
شدّد الـوحشَ صوتُـه، فتملّـى
من نيوبٍ في فَكّه ليس تشبعْ،

هَبّ يطوي العَجاجَ في طَلب الثأر.

مرى

نافذة الصبر

وقدموس !

الأعمى

في اتّقـــاء الصّواعــــقْ،

لفتَةٌ في اللظى، وأُخرى الى الخصم،

ولا زَندَ، آن يضرِب، واثقْ.

أبداً لا يقــرّ عينـاً، وإلّا

حطّمته من السَّماء شظيّـهْ،

أبداً لا يكُرّ كرّته الأولى،

وإلّا التَقَتْــهُ نابٌ فتيّــهْ.

فهوى.

مرى

موجعة تأبى مجرّد التفكير بانهزام قدموس

لا تقلْ !

الأعمى

وجرّرَ جثماناً

على الأرض.

مرى

لا !

الأعمى

وعفّرَ حُلمـا.

مرى

خلّني !

الأعمى

بتلذذ

وانطوتْ على ليل عينيه
أُمانيُّــهُ البـــواسمُ دُهْمـــا.
وتراءَت له، على البُعْدِ، آمالٌ
عِراضٌ في كَسفـةٍ واصفـرارِ،
وجهُ صيدونيا يَغيبُ، وغاباتُ
الصَّواري العُلى، وملْكُ البحارِ؛
ورأى مِخلباً ...

مرى

حنانَـك ! يكفينـي.

الأعمى

ونـابـاً ...

مرى

دعني !

الأعمى

وعينـاً ...

مرى

أقِلاّ !

الأعمى

ورأى رغوةَ اللُعاب على الفكّين.

مرى

هاربة

لا! لا!!

الأعمى

رأى القضاءَ مُطلّا.

وأنا ذاهلٌ على صخرتي، أزهو
كأعمى في ثأرِهِ غيرِ أعمى ؛
أُفحِم الشمسَ في الضُّحى، فأَرد النّصرَ
كسْفاً وأُطلعُ العزّ وَهمـــا.

ثملا بلذّة الثّأر

رِيبةٌ بي ؟ ضلَلتِ، مُرضعَ قدموسَ،
رجاءً، ضللتِ سهمـاً وقَصدا.

فخذيها وقيعةً عصَفَتْ بالفتح
يَبْساً، وبالجزائـــــر جُرْدا.
أُنظري، تلتقيه أَضغاثَ حُلـمٍ
نصرَ قدموس.

المشهد الثامن
الأعمى، قدموس

قدموس

متفكِّراً حزيناً

نصرُ قدموسَ دامٍ !

الأعمى

ربِّ ! قدموسُ في الوجود ؟!

قدموس

وما هَدّته
دُهْـــمُ الأهـــوالِ والآلامِ !
وقعةٌ كالكَذاب ! شِقٌّ من الغيب،
وشِقٌّ من الليالي الدَّياجـــي.

مستجمعاً ذاكرته

كيف كانت ؟ بينا أنا تحت وَبْلٍ
راجمٍ من صواعقٍ وعَجاجِ،
عَبَثاً أحتمي بأشدقَ غَورٍ،
عبثاً أتَّقي بأصلعَ صخرِ،
ونُيوبٌ صفراءُ تلمعُ دوني
في صَريرٍ يَحزُّ أعماقَ صدري،
لوّحت لي، على البعيد، يدٌ بيضاءُ
تزهو بالأحمر الأُرجواني،
ذكّرتْني أوربَّ، عهدَ العذارى
طافراتٌ على رُبى لبنانِ،
أيُّ نُعمى في وجهها ! لا سَنى الاشراق
أبهى ولا جلالُ الغروبِ.
قدُّها شِلْحُ زنبقٍ أبيضٌ عَفٌّ،
وتخطو فالأنس ملءُ الدُّروبِ.
طوّقتني بالبِشر، مذ ضحكتْ لي،
ورَنَتْ صوبَ زوشَ تسأل رِفدا،
كان إن مَسّ طرفُها نارَ زوشٍ
يترك النارَ ياسَميناً ووردا.

وتنفّستُ ألتقي عزميَ الرّاجعَ
في وابلٍ من الزّهر نَضْرِ،
ونفضتُ الغبارَ عنّي وأطبعْتُ،
علـى وحشِهم أَقُدُّ وأفري.
خلّني خلّني من الفخر.

الأعمى

مستفهماً بِهَلع

ما مات!

قدموس

بلى! انهار لا يحير صريعا

الأعمى

قُلتَ ؟! ...

قدموس

مات الصّباحُ في تَينك العينينِ،
وارْبدَّ كلُّ أُفقٍ ورِيعا،
وعلا هاتفٌ أنِ «افتضَّ من فَكّيه،
وازرعْ أضراسَه في الفَلاةِ،
تُنبتِ الأرضُ مَن يَشيدون للقدموس
أُولى المَدائن الخالداتِ».

الأعمى

هل أَجبتَ الداعي ؟!

قدموس

كأنّما يلوم نفسه

أجبتُ ! وما أنجزتُ

حتّى لم يبقَ ظِلٌّ لرؤيــا،

وتَهاوى الظّلامُ حولي كثيفاً،

خِلتُ دنيا راحت تُحطِّم دنيا.

وعَرَى بسمتي خريفٌ من اللون،

وأحسستُ وحشةً في الصَّباحِ،

موجعاً

أَيُّ جفنٍ يُغضي فيُلهب صدري !

أَيُّ جيدٍ يُلوي فيَكوي جراحي !

وسرى الخوفُ فيَّ للمرّة الأُولى !

سرى ؟ لا.

الأعمى

بثأر

بلى، وكان نَذيرا !

قدموس

بمَ أُنذرتُ ؟ قُلْ.

الأعمى

بِأُوربّ، يا قدموسُ.

قدموس

أختي ! ...

الأعمى

تحيـــا الصَّبـــاحَ الأخيـــرا !

قدموس

يفتديها ...

الأعمى

مَن، أيُّها الضّارِعُ العزمَ
يقيهـــا أَسِنّـــةَ الخالـــداتِ ؟
إنتظِرْها أمرّ من شَجْوك اليَوْمَ،
وأمضى من مِخْلب الحَسَراتِ.

قدموس

آهِ وَيحي !

الأعمى

بسُخرية ومرارة

ما أجملَ الآهَ سَيفاً
قاطعاً في يد الكَمِيِّ فِرِنْدا.
قُمْ إلى سيفكَ الجديدِ، وأفحِمْ
قدَراً رحتَ تزدريـهِ، وَصُدّا.
« قدرٌ فوقنا » مَقالـةُ جُبنٍ ؟
أرِني، يا ابنَها، وَغًى غيرَ جُبنٍ،
بطلٌ ؟ كُنْهُ في لِقائك أقدارَكَ،
كُنْهُ زُهاءَ طَرْفةِ جَفنٍ.
أختُك اليومَ للمَنيّةِ.

قدموس

زُورٌ.

الأعمى

زمجرَ السَّيلُ، وَهيَ منهُ حصاةُ.
خُذ، فتى البحر، خذ بناصرها الآن
وللرِّيحِ غضبةٌ وافتئاتُ.

قدموس

عَزْمتي ! عزمتي !!

الأعمى

خيوطٌ من الوهم،

وومضٌ من السَّراب نحيـــلُ،

فابكِها.

قدموس

مستبعداً الفكرة

لا !

الأعمى

تقول : « لا » وعلى وجهِكَ
جَهْشٌ من الأسى، وعويلُ.

قدموس

أنـا !

الأعمى

أَوْهى من مرأةٍ، في مراميكَ
ازورارٌ، وفـي قواك انهيـــارُ،
واجفُ الجسم ...

قدموس

لا ! وبأسَي، يا أعمى،
وزندي ؟

الأعمى

باحتقار

هشٌّ ولونٌ مُعارُ.

طيفُ جسمٍ يكاد يخلعك اليومَ.
ويمشي عليك.

قدموس

لا.

الأعمى

ويدوسُ.

قدموس

أنا ؟ أُغنيّةُ الرماح، عِنانُ البحر... ؟

الأعمى

كأنَّما يردُّ بالقول نفسه الذي ردَّ به قدموس في الفصل الأوَّل

أمساً.

قدموس

أمساً ؟ أنـــا قدمـــوسُ،
تَوْأمُ العزم ... ؟

الأعمى

هاتِ من عزمك اليوم،
وحَوِّرْ في صفحة الأقـدارِ،

خُطَّ في صبحك المريضِ ولو حرفاً،
وزَحزِحْ قُلامةً من غُبارِ.

قدموس

مذعناً للحقيقة

جَهْمةٌ طلعةُ الصَّباحِ، وخرساءُ
التَّنادي في أضلعي المُعْوِلاتِ؛

ويكاد الشُّعاعُ يلهبُ أعصابي،
ويَهمي أسِنَّةً في شَكاتي.

الإلٰهات

من الدّاخل

ما له الدَّمعُ طابْ!
مجدُ أُوربّ طواهُ الرَّدى.
رُقَّ، يا وردُ، ونُحْ يا ندى:
«وَجهُ صيدونَ غابْ».

المشهد التاسع

قدموس، الأعمي، مرى

قدموس

وقد رأى مرى تدخل عليه وحدها مذعورة، محطّمة

وحدَكِ اليوم ؟ فيمَ صمتُك؟! ضجّي.

أوَحقٌّ إعْوالُ هذا السُّكونِ ؟

أوَأغمضتِ أنتِ طَرْفاً عليها

واختزنتِ البهاءَ طيَّ الجفونِ ؟!

أوَشِمتِ الذِّراعَ تهوي على القدّ،

وكانت إشارةً في الكمالِ ؟!

باعدت فاقتفيتُها، فدفعتُ الصَّخرَ

من غفلةٍ إلى صحو بالِ.

أوَماتت عروسُ لبنان ؟! جوعي،

يا تراباتِنا الى رَطْبِ ظلٍّ،

واهدئي، يا غصونُ، واصفرَّ يا زهرُ،

فمَنْ بَعدَها لحسْنٍ ودَلٍّ !

الأعمى

مُقرِّعاً

مُدَّ كفّاً إلى الحقيقة، يا فاتحُ،
والـمُسْ، فمـا الحقيقـةُ زُورا.
تَقحمُ الارضَ،تَقحم النَّجمة الأُخرى،
وتبقـى دون السَّمـاءِ صغيـرا !

الإلٰهات

من الدَّاخل

سوف تبقى، غدَا،
للأولـى يمضون لا يرجعـونْ،
ـ حدُّهم في السَّعي حدُّ الظنونْ ـ
إصبعاً في الهدى.

غنّنا باسمِها،
واقعاً مَلّ، فكان الخيالْ.
مَن تَرُحْ تقرعُ بابَ المحالْ
تُدْمِهِ، يُدْمِها !

مرى

كأنَّما تَنعى أورب
غابتِ الشَّمس !

قدموس

ربِّ !

مرى

وقد ظهرت رؤيا لمدينة تشاد مشيقة الأعمدة، شاهقة القباب، ترصف حجارتها، كما جاء في الأسطورة، كل ردّاً على نغم، ومداميكها كل استجابةً لإيقاع

حذّقْ !

قدموس

. وكأنّما تهلّل وجهه لأوّل مرة

هُمُ صيدون

راحوا يبنون أبراجَ رثيبا،

رفعوها أنقى من الشمس لألاءً،

وأبهى من العَلاء وُثوبا !

البحّارة الصّيادنة

من الدّاخل

غرّبي، يا بحارْ،

شُرّداً بالأمل الغَضِّ،

ههنا، في آخر الأرضِ،
كَرمةٌ لي ودارٌ.

الإلٰهات

من الداخل

ما لَهُ الدَّمعُ طابْ !
مجدُ أوربّ طواه الرَّدى !
رُقّ، يا ورد، ونُحْ، يا ندى :
وجهُ صيدون غابْ !

الأعمى

وقد ظهرت رؤيا أخرى، قبالة الأولى، لالٰهات ينتحبن حول قبر من رخام عال، أنيق

قبرُ أُوربّ !

مرى

ولم تنفكّ شاخصة إلى الرؤيا الأُولى

مُلْكُ صيـدونيـا !

قدموس

محطّماً يتأرجح بين المشهدين : مجد بلاده ومصرع أخته

قِسمَتُنـا

من هِدايـــــةٍ وفتـــــوحِ :
نحمِلُ الأرض، إن نَشَأْ، فوق كَفّين ؛
ونـمضي كريشةٍ في الرِّيـحِ !

سِتّار

تمت

فهرست المجلد

